دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	التوازن في ضوء القرآن الكريم
المؤلف الرئيسي:	اليحيصي، عبدالسلام محمد عبدالله
مؤلفين آخرين:	عباس، عباس عوض اللهِ(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2010
موقع:	أم درمان
الصفحات:	1 - 407
رقم MD:	562557
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة أم درمان الاسلامية
الكلية:	كلية أصول الدين
الدولة:	السودان
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	القرآن الكريم ، تفسير القرآن ، الوسطية الإسلامية ، العقيدة الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/562557

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الباب الثاني
أقسام التوازن في القرآن الكريم

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: التوازن الكوني.

الفصل الثاني: التوازن التشريعي.

الفصل الأول
التوازن الكوني

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: التوازن الفلكي.

المبحث الثاني: التوازن المناخي.

المبحث الثالث: التوازن الجيولوجي.

المبحث الرابع: التوازن البيئي.

المبحث الخامس: التوازن في خلق الأجهزة والأعضاء.

المبحث الأول
التوازن الفلكي

أولا: السير المنتظم للنجوم والكواكب والمجرات:

كل شيء في السماء من النجوم والكواكب يتحرك، فالشمس تجري، والنجوم تجري، ولكن بميزان لا يشوبه اضطراب، قال سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[2].

فها هي الشمس «كان المظنون أنها ثابتة(*) في موضعها الذي تدور فيه حول نفسها، ولكن عرف أخيرا أنها ليست مستقرة في مكانها، إنما هي تجري. تجري فعلا. تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل»[3].

ثم هاهو القرآن الكريم يشير إلى هذه الحركة المستمرة والسير المنتظم للنجوم والكواكب والمجرات، وذلك بإخباره عن حركتي الشمس والقمر المنتظمتين لارتباط مصالح الناس بانتظام سيرهما، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ ﴾[4]، قال البغوي: «يجريان فيما يعود إلى مصالح العباد ولا يفتران»[5]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾[6]، وقوله: ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰٓ

---

(1) سورة الرحمن، الآية ٧.

(2) سورة يس، الآية ٣٨.

(*) للإستزادة حول ما كان يُظن من أن الشمس ثابتة في موضعها الذي تدور فيه، أنظر: كارل ساجان: كوكب الأرض. ترجمة: د. شهرت العالم، مراجعة: حسين بيومي، سلسلة كتب عالم المعرفة، العدد٢٥٤، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، فبراير ٢٠٠٠م، (ص٥٢).

(3) سيد قطب: في ظلال القرآن. دار العلم للطباعة والنشر بجدة، المملكة العربية السعودية، ط١٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، (ج٥، ص٢٥٦٩).

(4) سورة إبراهيم، الآية ٣٣.

(5) البغوي: معالم التنزيل. (ج٣، ص٣٦)، وانظر: الواحدي: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. (ج١، ص٥٨٣)، والآلوسي: روح المعاني. مراجع سابقة، (ج١٣، ص٢٢٤).

(6) سورة الرعد، الآية ٢.

﴿ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[1]، قال الرازي: «وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من هذه الكواكب سيراً خاصاً إلى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك»[2].

وأشار القرآن الكريم إلى التوازن القائم في سير هذه الأجرام السماوية بقوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[3].

فقد أورد الطبري عن قتادة قوله: «ولكلٍ حد وعَلَم لا يعدوه ولا يقصر دونه. إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا، وإذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا»[4].

فهذا التفسير الذي ذكره قتادة – رحمه الله – ينسحب على سير وحركة جميع النجوم والكواكب والمجرات في السماء، وليس فقط على سير الشمس والقمر، لاسيما وهذا الأمر من المسلمات العلمية.

فالنجوم والكواكب في حركة دائبة، وكل منها له مقامه المعلوم الذي لا يتعداه، فالشمس رغم أنها كرة غازية إلا أنها تدور بمجموعها كما تدور الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق، أي بالاتجاه المعاكس لدوران عقارب الساعة، ومن الجدير بالذكر أن «الحركة الأهم بالنسبة للشمس هي حركتها في الفضاء الكوني بمعدل **١٢ ميلاً في الثانية** في اتجاه " **فيجا** " ...الذي يطلق عليه العرب " **النسر الواقع** " والموجود في مجموعة نجوم " **السلياق** " ...، وتسوق معها في حركتها في الفضاء كواكبها التسعة، ومن ضمنها الأرض»[5].

ويقدر سيرها حول مركز المجرة بسرعة **٢٢٠ كلم في الثانية**،–وأيضاً– تسير

---

(1) سورة لقمان، الآية ٢٩.

(2) الرازي: التفسير الكبير. مرجع سابق، (ج١٨، ص١٨٧).

(3) سورة يس، الآية ٤٠.

(4) الطبري: جامع البيان. (ج٢٣، ص٨)، وانظر: الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل. (ج٣، ص١٦٤)، والشوكاني: فتح القدير. مراجع سابقة، (ج٤، ص٣٧٠).

(5) د. زينب منصور: الموسوعة الفلكية: الكون. الفضاء. الأرض. الأهلية للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، الطبعة العربية الأولى، ٢٠٠١م، (ص٦٠).

باتجاه قمة النظام الشمسي بسرعة **١٩,٥ كلم في الثانية**، ولهذا فإن السرعة التي يتطلبها أي جسم للإفلات من جاذبية الشمس هي **٥, ٦١٧ كلم في الثانية**[١].

إن سير هذه النجوم والكواكب والمجرات ثابت بالشكل الذي يحقق التوازن فيما بينها جميعاً، فالأرض «تدور حول الشمس بسرعة **١٠٧٨٢٣ كلم** في الساعة، وتتم الدورة في **٣٦٥ يوماً** و **٥ ساعات** و **٤٨ دقيقة** و **٤٥ ثانية**»[٢].

«وسرعة الأرض في دورانها حول الشمس غريبة مدهشة، فعندما تكون بعيدة من الشمس تكون بطيئة، فتعادل قوة جذب الشمس لها مع القوة النابذة الناتجة من سرعة دورانها. وعندما تقترب من الشمس تزيد من سرعتها؛ لأن قوة جذب الشمس لها في القرب منها تكون قد ازدادت، فتزداد قوة النبذ الناتجة عن الدوران لزيادة السرعة، فتتعادل من جديد قوة الجذب مع قوة النبذ»[٣].

وهذه ليست الدورة الوحيدة للأرض، بل لها دورات أخرى متعددة، فمنها دورتها حول نفسها، وهي الدورة التي يتولد منها الليل والنهار، ودورتها المقترنة بالشمس مع أخواتها الكواكب التابعات للشمس ضمن النجوم المجاورة، ودورتها ضمن مجرة التبانة، فالمجرة تدور حول نفسها والشمس وكواكبها تدور مع المجرة، وإضافة إلى ذلك الدورة ضمن مجرة التبانة في ابتعادها عن أخواتها من المجرات الأخرى.

ويدور القمر حول الأرض مرة كل **٢٩ يوما** و **١٣ ساعة** من الغرب إلى الشرق، وذلك بسرعة **٣٨٠٠ كلم في الساعة**، وتدعى هذه المدة بالشهر القمري، كما يدور حول نفسه في الوقت ذاته[٤].

والقمر ملازم للأرض كذلك في كل دوراتها مع الشمس. والحال كذلك مع بقية كواكب المجموعة الشمسية، فهي جميعا تأخذ دورات الشمس المتعددة؛ لأنها لا تنفك عن مداراتها بالنسبة للشمس، وبما أن الشمس هي عبارة عن نجم من النجوم، فمما لا شك فيه أن النجوم لها نظامها المماثل للشمس، ولعدد كبير منها توابع من الكواكب الدوارة حولها،

---

(١) المرجع نفسه. بتصرف، (ص٤٣، ص٤٤).

(٢) موريس شربل: القفزات العلمية الكبرى في القرن العشرين. الناشر: جروس برس، طرابلس، لبنان، ط١، ١٩٩٦م، (ص٨٦).

(٣) شوقي خليل: الإنسان بين العلم والدين. دار الفكر، دمشق- سوريا، ط٦، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، (ص٩٣).

(٤) موريس شربل: القفزات العلمية الكبرى. بتصرف، مرجع سابق، (ص٨٣، ٨٥).

وهي تسير – أيضا – بنظام دقيق جدا يمنعها من التصادم الذي قد ينتج عن أدنى اضطراب في تغير نظام سيرها المرسوم.

«بل والأعجب من ذلك ما يراه علماء الفلك من أن مجرات النجوم يتداخل بعضها في بعض، فتدخل مجرة تشمل على ملايين من السيارات المتحركة في مجرة أخرى – تتحرك سياراتها هي أيضا – ثم تخرج منها بسياراتها جميعا دون أن يحدث أي تصادم بين سيارات هاتين المجرتين»[١].

إن هذه الصورة العظيمة لحركة هذه الأجرام السماوية لتعبر عن دقة الضبط وعظمة التقدير التي أبدعها الخالق العظيم سبحانه وتعالى.

هذا «ويُقدر عدد النجوم في بعض المجرات بنحو **٤٠ مليار** نجمة...، ويقدر عدد المجرات بما بين **مائة ألف مليون ومليون مجرة**»[٢].

إن هذا القانون الذي يضبط سير النجوم والأفلاك في السماء، فيمنع أي جرم أن يتعدى السرعة التي قدرت له فيسبق غيره، أو أن يوسع حيزه الذي أعطي له فيطغى على حيز جرم آخر فيصطدم معه، هو الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ ﴾[٣]، فعدم التدارك بين الأجرام السماوية، يعني أن لها سرعات ثابتة لا تتجاوزها، وهذا هو الذي منع التصادم فيما بينها، فحافظ كل نجم وكوكب على موقعه وحيزه الذي يدور فيه من دون أي تجاوز لذلك.

ومن المعلوم أن دوران الجسم حول نفسه بسرعة فائقة يجعل نصف قطر الدائرة التي يدور فيها صغيراً، وكذلك دورانه حول نفسه بمعدل نصف السرعة السابقة يجعل نصف قطر الدائرة التي يدور فيها ضعف نصف قطر الدائرة السابق[٤].

ومما لا شك فيه أن زيادة سرعة دوران أي جرم سماوي أو قلتها عن السرعة

---

(١) جعفر الهادي: الله خالق الكون. إشراف العلامة المحقق الشيخ جعفر السبحاني، دار الأضواء للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، (ص١٥٢).

(٢) موريس شربل: القفزات العلمية الكبرى في القرن العشرين. مرجع سابق، (ص٨٠).

(٣) سورة يس، الآية٤٠.

(٤) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر: الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن. سلسلة العلم والقرآن، العدد١، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، بتصرف، (ص١٣٢).

المقدرة له، فإنه يتسبب في تبعات خطيرة نتيجة لذلك، فمثلا «لو كانت سرعة دوران الكواكب أقل مما هي عليه لانجذبت كلياً نحو الشمس وابتلعت من قبلها مع انفجار كبير يحدث نتيجة البلع...، ولو كانت سرعة ودوران الكواكب أكبر مما هي عليه، عندئذ لن تكفي قوة الجذب الخاصة بالشمس لمسك الكواكب في مداراتها، وبذلك ستتشتت مبتعدة في الفضاء- إن النتيجة في كلا الأمرين مُرة - إلا أن الواقع أن هناك توازنا دقيقا بين قوة جذب الشمس والقوة الطاردة المركزية للكواكب تستمر بموجبها المجموعة الشمسية في البقاء، وهذا التوازن موجود لدى كل كوكب على حدة، بسبب البعد عن الشمس والاختلاف من ناحية الكتلة، ولهذا فكل كوكب يحتاج إلى سرعة دوران معينة كي يتحقق التوازن المذكور، أي عدم الانجذاب نحو الشمس كليا أو الإفلات في الفضاء»[1].

إن هذا السير المنتظم للنجوم والمجرات رغم كثرة أعدادها، وأحجامها الهائلة، وسرعاتها المهولة، وتداخل بعض المجرات بمجرات أخرى من دون أن يحدث أي خلل أو تصادم بين نجم وآخر، بل ومن دون أن يفقد أي نجم أو كوكب موقع سيره وهداه المقدر له فيدخل في مدار نجم أو مجرة أخرى؛ ليمثل أبلغ درجات التوازن والضبط القائم في سير هذه السيارات العظيمة.

ثانيا: الأبعاد المنتظمة والمواقع الثابتة بين الأجرام السماوية:

إن مما يلفت الانتباه هو ذلك النسق الدقيق من المسافات المقدرة بين نجوم السماء وكواكبها بصورة منظمة تضبط مسارات النجوم ومواقعها، فهي موضوعة في أماكنها المحددة لها، فلا تقترب من مسار نجم أو كوكب آخر فتدخل في حدوده ومداره، ولا تبتعد عن مدارها لتفسح لغيرها فيه، بل تحافظ على مواقعها بثباتٍ يحقق ثبات المسافة فيما بينها وبين النجوم والكواكب التي تدور معها، وقد نبه القرآن الكريم إلى هذا التوازن الدقيق

---

(1) هارون يحيى: سلسلة المعجزات. مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، (ص٥٥).

سواء كان ذلك في ثبات المسافة أو ثبات السرعة والسير بقوله تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[1].

وقد أورد الطبري في تفسيره لهذه الآية قول قتادة: «أي يدوران في حساب...»، ثم قال: والأولى عندي بالصواب تأويل من تأوله: وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب وعدد لبلوغ أمرهما ونهاية آجالهما، ويدوران لمصالح الخلق التي جعلا لها»[2].

ويدل على ثبات المسافة والسرعة –أيضا– قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[3]، حيث ورد عن ابن عباس، أنه قال: «أي يجريان بعدد وحساب...

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهما يجريان بقدر...

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهما يدوران في مثل قطب الرحا...

– وقال الطبري– : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه الشمس والقمر يجريان بحساب ومنازل؛ لأن الحسبان مصدر من قول القائل: حسبته حسابا وحسبانا، مثل قولهم: كفرته كفرانا، وغفرته غفرانا»[4].

وهذه الأقوال تتطابق تماما مع ما توصل إليه علماء الفلك من الوضع الدقيق الذي تسير عليه الأجرام السماوية في فلكها، وفي كون أبعادها ومسافاتها ثابتة وجارية على حساب معلوم رغم جريها المستمر، ومثال ذلك:

«أبعاد السيارات في المجموعة الشمسية جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق(٩) منازل: أولها الصفر، ثم تليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد (٣)، ثم تتدرج مضاعفة هكذا: (٠، ٣، ٦، ١٢، ٢٤، ٤٨، ٩٦، ١٩٢، ٣٨٤)، فإذا أضيف إلى كل واحد من هذه الأعداد العدد (٤)، ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل، فإنه يظهر مقدار بعد الكوكب عن الشمس. ومن المعلوم المقرر أن ترتيب هذه الكواكب حسب بعدها عن الشمس كالآتي:

(عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون)

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٩٦.

(٢) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٧، ص٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) سورة الرحمن، الآية ٥.

(٤) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٢٧، ص١١٥، ١١٦).

٠ ٣ ٦ ١٢ ٢٤ ٤٨ ٩٦ ١٩٢ ٣٨٤

فإذا أردنا معرفة بُعد كوكب (الزهرة) مثلا وهو في المنزلة الثانية من الترتيب إذ ليس أمامه غير عطارد ومنزلته الصفر، فمنزلة الزهرة رقم (٣)، وإذا أضفنا إلى رقم منزلة الكوكب العدد (٤) كما أفادت القاعدة، ثم ضربنا الناتج في(٩) ملايين، يكون الناتج (٦٣) مليون ميل وهو بعده عن الشمس»[١].

وهكذا عند تطبيق النظرية[٢] على بقية كواكب المجموعة الشمسية يظهر أن الأبعاد والمسافات ثابتة، فالأرض تقع في المنزلة الثالثة بعد المريخ، ورقمها ٦، فيكون حساب بعدها عن الشمس هو ٦+٤=١٠×٩ مليون ميل =٩٠ مليون ميل تقريبا. والمريخ مثلا يقبع في المنزلة الرابعة، ورقمه ١٢، فيكون حساب بعده عن الشمس هو ١٢+٤=١٦، ثم نقوم بضرب ١٦×٩ مليون = ١٤٤مليون ميل تقريبا.

«ولقد لفت نظر الفلكيين إشكال لم يلبث أن وضح حله، وهو أن المنازل التي تقدرها حساباتهم هي تسعة منازل[*] في حين أن الكواكب المعروفة لديهم في المجموعة الشمسية ثمانية، فمنزلة العدد (٢٤) ليس فيها كوكب، بل يأتي بعد المريخ الذي رقمه (١٢) كوكب المشتري الذي رقمه (٤٨)، لكنهم بعد الرصد الدقيق والبحث المتواصل وجدوا في هذا الفراغ الذي قدّروا أنه لابد من وجود كوكب فيه، وجدوا كويكبات صغيرة

---

(١) أ. د. مصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن. دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، (ص١٨٦)، وأنظر: م. سعد شعبان: الطريق إلى المريخ. سلسلة كتب عالم المعرفة، العدد ٢٢٨، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر ١٩٩٧م، (ص٢٣).

(٢) هذه نظرية أعلنها العالم الفلكي (بودي) عام ١٧٧٢م بناها على دقة الملاحظة، إذ وجد أن أعداد الكواكب تنتظم على هيئة متوالية عددية، ولم يكن معروفا في ذلك الوقت للمجموعة الشمسية إلا الستة الكواكب الأولى فقط، وأُكتشف كوكب أورانوس عام ١٧٨١م بعد إعلان بودي لنظريته بسنوات قليلة وفقا للمتوالية وتأييدا لصحتها إلا أنها لم تنطبق على كوكب نبتون وبلوتو، ورغم قدم هذه النظرية إلا أن فيها دليلا على ثبات الأبعاد والمواقع للنجوم، بالإضافة إلى أن ما قررته من حساب لمسافات الكواكب لا يبعد كثيرا عما قرره علماء الفلك حديثا. أنظر: م. سعد شعبان: المرجع نفسه.(ص٢٣، ٢٤).

(*) لقد بلغ عدد كواكب المجموعة الشمسية عشرة كواكب، فقد رصد موقع آخر في ٢١ أكتوبر٢٠٠٣م لكوكب تابع للمجموعة الشمسية أطلق عليه عدة أسماء منها: بتي، وزينا، و٢٠٠٣/٣١٣/يوبي، وقد اكتمل رصد دورته في الفضاء في يناير ٢٠٠٥م. أنظر: د. موسى الأمين الزبير: كوكب الأرض صنع الله الذي أتقن كل شيء. مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد١٠، إصدار كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة إفريقيا العالمية، السودان، شعبان ١٤٢٨هـ/أغسطس ٢٠٠٧م، (ص٢٠٧).

تدور كلها في الفراغ المذكور بين المريخ والمشتري، أي في المنزلة رقم (٢٤)»[١]، وبهذا حُل الإشكال في هذه المنزلة.

وهكذا فإن النجوم والكواكب والمجرات لها نظامها الدقيق والمحسوب الذي يحقق ثبات المسافات والأبعاد فيما بينها، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾[٢]، وتقدير منازل هذه الأجرام هو الذي حفظ بقاءها من الزوال، إذ من المعلوم أن هذه الأجرام لو حادت عن مواقعها ومساراتها المحددة لها لاضطرب نظام الكون بأجمعه بسبب اختلال نظام الجاذبية بين الكواكب، ولذلك أقسم الله بعظمة هذه المواقع، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾[٣]، فلكل كوكب ونجم موقعه المهم بالنسبة لبقاء التوازن وحفظ النظام الذي تسير عليه النجوم والكواكب في السماء، وقد «أثبتت الأبحاث الفلكية مؤخرا أن وجود الكواكب الأخرى يشكل عاملا مهما جدا في وجود الأرض في مدارها وثباتها واستقرارها. ومثال ذلك كوكب المشتري، فهو يعتبر الأكبر من ناحية الكتلة، ووجوده مهم لحفظ توازن الأرض ولباقي كواكب المجموعة الشمسية، فهو بكتلته يشكل مجالا مغناطيسيا يستطيع أن يجعل النيازك والمذنبات تنحرف عن مسارها المتجه نحو الأرض، فهو يؤدي وظيفة الدرع الواقي للأرض»[٤].

«والأرض والقمر كذلك لهما دور كبير في تحقيق التوازن في المجموعة الشمسية، فلو غابا عن موقعيهما في المجموعة الشمسية لأثّرت الجاذبية الهائلة لكوكب المشتري على الكواكب الداخلية مثل: عطارد والزهرة مؤدية إلى عدم الاستقرار فيهما. وبمرور الزمن تقترب مدارات كل من هذين الكوكبين من بعضهما إلى درجة كبيرة جدا، ويؤدي هذا التقارب إلى انفلات كوكب عطارد من المجموعة الشمسية وتغير مدار كوكب الزهرة»[٥].

---

(١) أ. د. مصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن. مرجع سابق. (ص١٨٦، ١٨٧).

(٢) سورة يونس، الآية ٥.

(٣) سورة الواقعة، الآية ٧٥، ٧٦.

(٤) هارون يحيى: سلسلة المعجزات. مرجع سابق، (ص٥٥، ٥٦).

(٥) المرجع نفسه. (ص٥٧).

إن انتظام الأبعاد والمسافات وثبات المواقع في حركة الأجرام السماوية هي الحقيقة التي لا يختلف عليها اثنان، فالشمس تشرق وتغرب كل يوم وفق حساب دقيق يلمسه جميع الناس، والقمر يتنقل في منازله المعروفة من دون أن يتقدم أو يتأخر حتى يصبح كالعرجون القديم، وكل النجوم والكواكب في السماء لا تعدوا مواقعها، فكل واحد منها له مقامه المعلوم الذي لا يجاوز حده قربا ولا بعدا، بل أمكن في زماننا هذا تحديد أوقات الخسوف والكسوف للشمس والقمر قبل حدوثهما بشكل دقيق جدا، وكل هذا يرجع إلى انتظام حركة السير لهذه الأجرام السماوية.

ثالثا: التقدير في تنظيم الحرارة في النجوم:

إن التوازن هو السمة القائمة في كل شيء في هذا الوجود حتى في حرارة النجوم، فالنجوم ومنها الشمس– وفقاً لنظرية علماء الفلك– تنتج الأيدروجين الذي يمثل الوقود والطاقة بالقدر المتوازن الذي يتناسب مع كتلة النجم، وتساهم الجاذبية في هذا الدور الفعال، فقوة جذبها تجعل نواة النجم تنكمش باستمرار، وهذا بدوره يؤدي إلى ارتفاع درجة الحرارة، فتنساب بطريقة الإشعاع إلى الخارج، ثم يصبح معظم الانسياب بطريقة الحمل[1]؛ لأن النجم يكون في حالة غليان. ويستمر الانسياب بطريق الحمل حتى تصل الطاقة إلى طبقات الغلاف المضيء الخارجية حيث يتحول انسياب الطاقة مرة أخرى إلى طريقة الإشعاع لتتمكن الطاقة من التسرب مع الضوء الثاقب لصفحات الظلام إلى الفضاء الرحيب، وفي حالة نجم عادي مثل شمسنا نجد أنه إذا كان تسرب الإشعاع من الغلاف المضيء أكبر من الطاقة المنسابة من الباطن، فإن درجة حرارة

---

(1) حتى يتضح معنى الحمل الحراري: ضع عينيك بالقرب من جدار إناء زجاجي ممتلئ بالطحين المغلي، فتجد أن الحرارة تنتقل إلى السائل بالقرب من قاع الإناء، ثم يحمل إلى أعلى عن طريق السائل الناهض. وفقاعات الطحين الساخن أكثر قابلية للطفو عما يحيط بها، وتنهض لتحرر حرارتها عند القمة، وبعد أن تحرر الحرارة تبرد الفقاعات وتصبح أكثف من الفقاعات الساخنة الجديدة من تحت بحيث تغوص طبقة السطح لكي يعاد تسخينها. وهذه العملية التي تُحمل فيها الحرارة من قاع الإناء إلى أعلى عن طريق الفقاعات الناهضة تسمى: الحمل الحراري. أنظر: روبرت و. نويز: الشمس نجمنا المشرق. ترجمة: ميشيل تكلا، الناشر: مؤسسة سجل العرب، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ص٣٥).

السطح ترتفع حتى يتم التوازن مرة أخرى، بل المدهش أن النجوم تحقق حالة توازن من نوع آخر، وهي الحالة التي تتعادل فيها الطاقة المفقودة من الغلاف المضيء والطاقة المنسابة من الباطن بنفس المعدل، أي أن النجوم
تحقق ثلاث حالات من التوازن: توازن الضغط، وتوازن الطاقة، وتوازن السطح[١].

فالنجوم ومنها الشمس يرجع تحديد انتظام حرارتها إلى مقدار كتلتها، وكل نجم كذلك، فكلما عظمت كتلته زادت نسبة توليد طاقته وضياؤه، فكأن هناك منظما للحرارة يحافظ عليها في مستوى معين، فيمنعها من التغير الفجائي زيادة أو نقصانا.

فالغازات المضغوطة في قلب النجم بسبب ضغط وزن الطبقات العلوية لها، لابد أن يكون لها ضغط معاكس يعادل ضغط الطبقات عليها، لكي تمنع ضغطا أكثر. ولكي تنتج الغازات المكثفة ضغطا مناسبا فلابد أن تكون درجة حرارتها عالية بدرجة كافية؛ لأن الضغط يتناسب مع إنتاج كثافته ومع ارتفاع درجة الحرارة[٢].

ومن الجدير بالذكر أن «ارتفاع درجة حرارة القلب ب١٠% قد يرفع من ضغط الغاز بـ١٠%، لكن قد يسبب مضاعفة نسبة إنتاج الطاقة»[٣].

ولنا أن نتخيل فيما لو انخفضت درجة حرارة قلب النجم، فإن ضغط الغازات في القلب قد تنخفض – أيضا– لكي تحقق بذلك الموازنة مع وزن الطبقات العلوية، بحيث تبدأ هذه الطبقات في الانهيار على القلب، ومن ثم تحرر الطاقة الجاذبية من انهيارها كحرارة قد تدفئ القلب بدرجة خفيفة. إن هذه التفاعلات النووية الحساسة قد ترتفع في الحال، ومن ثم تظل درجة الحرارة الجديدة وضغط القلب عاليا حتى بعد أن يتوقف الانكماش، وإذا حدث العكس من ذلك بأن ارتفع كل من درجتي الحرارة والضغط ارتفاعين عظيمين بطريقة ما بالنسبة للتوازن، فعدم توازن الضغط قد يسبب توسيعا للقلب وبنتائج عكسية، وفي كل حالة ستجد أن الشمس مثلا كونها نجم من النجوم قد أصبحت نصف

---

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر: الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن. بتصرف، مرجع سابق، (ص١٥٣، ١٥٤)، وانظر: د. محمد باسل الطائي: خلق الكون بين العلم والإيمان. دار النفائس، بيروت– لبنان، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، (ص١٢١– ١٢٣).

(٢) روبرت و. نويز: الشمس نجمنا المشرق. بتصرف، مرجع سابق، (ص٩٣، ٩٤).

(٣) المرجع نفسه. (ص٩٤).

قطر متوازن، فيصبح كل شيء متوازنا مرة أخرى كما كان في ضغط القلب ودرجة الحرارة ونسبة إنتاج الطاقة النووية[1].

ويمكن ملاحظة هذا التوازن الدقيق في النجوم من خلال ملاحظة التوازن الذي تحققه الشمس وتنضبط به، إذ لو لم يكن هناك توازنا في الشمس مثلا – وهي نجم من النجوم – لما أمكن أن تكون هناك حياة أصلا على وجه هذه الأرض؛ ذلك لأن بقاء الحياة على وجه الأرض لا يحتمل أدنى خلل في الطاقة الواصلة إليها من الشمس، وهذا التوازن المستمر في الطاقة الشمسية يبين حقيقة التوازن القائم فيها وفي قدر الحرارة التي تنبعث منها، وكذلك الحال في كافة النجوم في السماء.

فالشمس تخرج في الثانية الواحدة٤×١٠ **قوة ٢٣** أوج (طاقة) من دون أن يحدث اضطراب فيقل إلى نصف هذا القدر أو يزداد إلى ضعفه[2].

وإذا كانت الشمس منضبطة بهذا التوازن الدقيق، فإن النجوم محكومة به أيضا، ولولا هذا النظام لاختل بناء السماء، وفسد كل شيء في الكون.

رابعا: التوسع المستمر والمتزن في السماء:

ذكر القرآن الكريم التوسع المستمر في السماء في قوله تعالى: ﴿ **وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** ﴾[3]، وقد قال ابن الجوزي في معنى ﴿ **لَمُوسِعُونَ** ﴾، أي «لموسعون ما بين السماء والأرض»[4].

ولاشك أن مجرد النظر إلى السماء والتأمل في أبعاد النجوم والكواكب يعطي للذهن صورة عظيمة للسعة التي هي عليها، لكن هناك صورة أخرى هي أعظم من هذه الصورة التي ارتسمت بمجرد النظر بالعين المجردة، وهي تلك التي عكستها الأبحاث العلمية وأجهزة الرصد المتطورة عن هذه السعة من خلال قياس المسافات ومعرفة الأحجام لبعض الكواكب والنجوم، فعند التأمل في هذه القياسات يصعق المرء من مدى

---

(١) المرجع نفسه. بتصرف، (ص٩٤، ٩٥).

(٢) المرجع نفسه. بتصرف، (ص٩٣).

(٣) سورة الذاريات، الآية ٤٧.

(٤) ابن الجوزي: زاد المسير. (ج٨، ص٤١)، وانظر: ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. (ج٥، ص١٨١)، والنسفي: تفسير النسفي. مراجع سابقة، (ج٤، ص١٨١).

الاتساع الحاصل في الكون رغم المعرفة المحدودة جدا عنه، ومن ذلك أن «قطر الشمس ١٣٩٢٠٠٠/كم، ومتوسط قطر الأرض ١٢٧٤٠/كم، وحجم الشمس ١٣٠٠٠٠٠مرة أكبر من حجم الأرض البالغ ١٠٨٣مليار/كم مكعب»[١].

بالإضافة إلى أن متوسط البعد من الأرض إلى الشمس في أقرب مدار دائري سنوي لها هو ١٤٩٥٩٧٨٩٣/كم، بدقة لأقرب خمسة كيلومترات.

ومع ذلك فموجات الضوء المرتحلة من الشمس بسرعة ٣٠٠٠٠٠/كم/ثا، تحتاج فقط إلى ٨,٥ دقيقة لتغطية نفس المسافة، وأما نجم **الفاقنطورس**، فإنه على مسافة ٢٧٥٠٠٠وحدة فلكية، أو ٢٧٥٠٠٠ مرة المسافة إلى الشمس، وفي مسح لمجرتنا وجد أن حجمها يبلغ نحو ١٠٠٠٠٠ سنة ضوئية، وشمسنا تقع بالقرب من الطرف الخارجي الأبعد لتعدادٍ من النجوم على شكل أقراص على بعد ٣٠٠٠٠ سنة ضوئية من مركزها[٢].

وإذا كانت الأرض تحتاج إلى سنة واحدة لدورانها حول الشمس، فإن الشمس تحتاج إلى ٢٠٠ مليون سنة لتتم دورة واحدة حول مركز التبان، وهي تنتقل على هذا المدار بسرعة تزيد على ٢٥٠/كم/ثا، وعلى بعد ١٥٠مليون سنة ضوئية منا، توجد مجرتان غير منتظمتي الشكل تدعيان بسحب مجلان الكبرى، وسحب مجلان الصغرى ...، وهما أقرب مجرات الكون إلينا، وهما في الحقيقة توابع لدرب التبان، أي لمجرتنا التي نعيش فيها، وتحتاج سحب مجلان هذه إلى حوالي **بليون** سنة لتتم دورتها حول مجرتنا[٣].

بل إن مما يُظهر سعة الكون أيضا أن«ألمع نجوم معرفة للفلكيين يزيد لمعانها عن لمعان الشمس **بمليون** مرة، ولو وضع نجم من هذه النجوم المشرقة عند مسافة **الفاقنطورس**، فقد يبدوا لمعانه عشرة أضعاف لمعان البدر. وإذا وضع مكان الشمس فقد يبخر الكرة الأرضية»[٤].

---

(١) موريس شربل: القفزات العلمية الكبرى في القرن العشرين. مرجع سابق، (ص٨١).

(٢) روبرت و. نويز: الشمس نجمنا المشرق. بتصرف، مرجع سابق، (ص٩، ١٠، ١١، ١٣).

(٣) أنور عبد الغني العقاد: الجغرافيا الفلكية. دار المريخ للنشر، الرياض– المملكة العربية السعودية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، بتصرف، (ص١٦٩، ١٧٠).

(٤) روبرت و. نويز: الشمس نجمنا المشرق. مرجع سابق، (ص١٥).

إن الوقوف أمام هذه الأرقام المخبرة عن بعض ما توصل إليه علماء الفلك بقياساتهم الضوئية عن أبعاد بعض الأجرام السماوية، تجعلنا على يقين تماما أن القياسات العادية المستخدمة في الأرض لا مكان لها في قياس الأبعاد بين الأجرام السماوية.

وعلى هذا لو انطلقت طائرة نحو الشمس، وهي قادرة على اجتياز قارة أمريكا الشمالية في خمس ساعات مثلا بسرعة ٨٠٠/كم في الساعة، فإنها قد تستغرق **٢١** عاما من الطيران المستمر حتى تتمكن من الوصول إلى الشمس، وأما إذا اتجهت هذه الطائرة بنفس سرعتها إلى نجم **الفاقنطورس**، فإنها قد تستغرق **٥,٨** مليون سنة لتصل إليه، في الوقت الذي يحتاج الضوء للوصول إلى هذا النجم بسرعته المعروفة زمنا مقداره **٤,٤** سنة ضوئية، وهذا هو البعد لهذا النجم عنا[١].

إن هذه الأبعاد السحيقة التي لا تقاس إلا بالسنوات الضوئية لبعض هذه النجوم القريبة لتبين عظمة التوازن الدقيق الذي عليه اتساع هذا الكون، والذي لو لم يكن هذا الاتزان قائما لما أمكن حساب هذه المسافات والأبعاد بين هذه الأجرام السماوية بهذه الصورة الدقيقة وبالتالي:

فـ«لو أننا أردنا وضع نموذج صغير جدا للكون نجعل فيه الأرض بحجم حبة خردل، فإن القمر سيكون ذرة بحجم ربع حبة الخردل، وعلى مسافة بوصة واحدة ستكون الشمس بحجم التفاحة، وبقية الكواكب السيارة ستتباعد وتقترب من حجم الذرة إلى أكبر من ذلك، ومسافاتها عن الشمس تختلف بين عشرة أقدام إلى ربع ميل، فهذه المجموعة الشمسية على نموذج نصف ميل.

وبعدها لا بد أن تقطع فضاء – على هذه النسبة نفسها – مساحته أعرض من قارة أمريكا حتى تستطيع أن ترى جرما سماويا، وهكذا تبتعد النجوم بعضها عن بعض بحيث أن نموذجا مساحته مساحة الكرة الأرضية لا يتسع لأكثر من ثلاثة نجوم على

---

(١) المرجع نفسه. بتصرف، (ص١١، ١٢).

فرض أن حجم الكرة الأرضية فيه بحجم حبة الخردل، فما بالنا بالمساحة التي عليها أن تكفي وتحتوي على **مائة مليون** نجم مثلا ؟!»[1].

ومع هذا فإن الإنسان لم يتمكن من اكتشاف السعة الحقيقية للكون رغم تطور آلاته ومعداته الحديثة، فكل هذه القياسات قد تمت على وفق ما استطاع علماء الفلك أن يرصدوه ويتتبعوه من خلال السير المتزن لهذه النجوم والمجرات، والظهور والأفول المنضبط على القريب والبعيد من الوقت لمجموعات معينة من الأجرام.

وبالرغم من السعي الحثيث الذي يبذله الإنسان لمعرفة سعة الكون، إلا أن ما يعلنه عن أرقام حول هذا الموضوع تبقى في حيز الظن. ومع هذا فعندما يقال:

أن «الإنسان قد توصل إلى أن يرصد بواسطة آلاته واختراعاته حدود ٢٤٠ مليون سنة ضوئية، – وقدَّر– محيط الكون بنحو ٨٠٠٠ مليون و ٥٠٠ ألف سنة ضوئية، ...– وأن الكون– يتمدد كمنطاد ينتفخ، وأن هذا التمدد مستمر منذ نشأة الكون. وتتكون في الوقت نفسه نجوم أخرى من السحب الغازية المنتشرة في الفلك»[2].

فإن عظمة الخالق –جل وعلا– تتجلى بوضوح أمام هذه الأرقام المهولة التي لا تعدوا أن تكون أمام ما لم يتم التوصل إلى رصده شيئا يسيرا جدا.

إن التوسع والتوازن في الكون أصبح حقيقة بدهية مسَلَّمة عند جميع البشر،

فهاهو بول ديفز[3]يعلق على هذا التوسع المنتظم في الكون بقوله: «هناك–أيضا– انتظام في تنظيم العالم فضائيا، فعلى المقياس الكبير تتوزع الطاقة والمادة بشكل متساو جدا، ويبدو أن العالم يتمدد بالمعدل ذاته في كل مكان وفي كل الاتجاهات»[4].

---

(١) أ.د. مصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن. مرجع سابق، (ص١٨)، نقلا عن: مصطفى الدباغ: وجوه من الإعجاز القرآني. (ص٨٩).

(٢) موريس شربل: القفزات العلمية الكبرى في القرن العشرين. مرجع سابق، (ص٨٠).

(٣) هو بول ديفز البريطاني أستاذ الفيزياء الرياضية في جامعة أدلايد الأسترالية، هاجر إلى استرالية عام ١٩٩٠م، تتناول أبحاثه مجال الثقوب السوداء والكوسمولوجية (علم الكون)، نشر ما يزيد عن مائة بحث اختصاصي، اكتسب شهرة عالمية بقدرته على شرح مدلول الأفكار الفيزيائية المتقدمة بلغة بسيطة، وألف ما يقرب من عشرين كتابا، وله ظهور في وسائل الإعلام. أنظر: بول ديفز: الله والعقل والكون. ترجمة: سعد الدين خرفان، وائل بشير الأتاسي، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، سوريا– دمشق، ط٥، ٢٠٠٧م، (ص٥).

(٤) بول ديفز: الله والعقل والكون. مرجع سابق، (ص٢١٠).

إن مما لا شك فيه أن هذا التمدد الذي يحدث في الكون يسير وفق سرعة وتقدير ثابتين، يراعى فيه الأبعاد والسرعات وقوى الجذب والطرد المختلفة بين الأجرام السماوية بشكل متوازن، الأمر الذي يحفظ بناء السماء ويمنع التصادم بين الأجرام.

إن أدنى خلل في اضطراب سرعة التمدد زيادة أو نقصانا، يجعل البقاء لهذه الأجرام وللحياة مستحيلا، ثم هاهو البروفيسور بول ديفز يصل إثر أبحاث مضنية ومتواصلة إلى نتيجة مدهشة، يتبين من خلالها التوازن الدقيق في سرعة هذا التمدد الحاصل في السماء، وهي: «أن أي تغيير في سرعة تمدد الكون مهما كان ضئيلا حتى لو كان بنسبة (**١ إلى مليار مليار** أو **١٠/١ قوة ١٨**) لما استطاع الكون أن يظهر إلى الوجود»[١].

إن النسبة المئوية السابقة هي كما يلي: (١: ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠)، وهي تبين استحالة وجود خطأ في هذا التمدد حتى ولو كان ضئيلا جدا، ولهذا ويعلق البروفيسور على نتيجته التي توصل إليها قائلا:

«إن الحسابات تدل على أن الكون يتمدد بسرعة دقيقة للغاية، ولو أبطأ الكون في التمدد قليلا لحدث الانكماش نتيجة قوة الجذب، ولو أسرع قليلا لتشتت المادة واندثرت في الفضاء الكوني، وإن التوازن الحاصل بين هذين الاحتمالين الخطيرين يعكس لنا مدى الدقة والحساسية في هذه السرعة، فلو تغيرت سرعة تمدد الكون بعد الانفجار ولو بمقدار(**١٠/١قوة١٨**) لكان كافيا لإحداث خلل في التوازن، لذلك فإن سرعة تمدد الكون محددة بشكل دقيق إلى درجة مذهلة، ونتيجة لهذه الحقيقة لا يمكن اعتبار أل(BiG BAN)[٢] انفجارا عاديا، بل انفجارا منظما ومحسوبا بدقة من النواحي كافة»[٣].

فالتمدد في الكون هو حقيقة مسلم بها ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم بقوله:

---

(١) هارون يحيى: سلسلة المعجزات. مرجع سابق، (ص١٨).

(٢) أي الانفجار العظيم، وهذه نظرية تقول: إن العالم بأكمله قد وجد فجأة إثر انفجار هائل منذ ما يقرب من ١٥ مليار سنة. أنظر: بول ديفز: الله والعقل والكون. مرجع سابق، (ص٤٧).

(٣) هارون يحيى: سلسلة المعجزات. مرجع سابق، (ص١٩).

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1]، وجاء العلم الحديث ليؤكدها، وأصبحت نظرية الانفجار العظيم من الحالات المعتبرة للتوازن الدقيق القائم في هذا التمدد المستمر في الكون منذ بداية خلقه.

«ولقد ثبتت لدى العلماء هذه الحقيقة ثبوتا تاما وأصبحت المناقشات بصددها تدور حول مدى وكيفية هذا التمدد في الكون...، فلقد أكدتها دراسات طيف المجرات ... – التي أثبتت – أن الانتقال المنتظم نحو اللون الأحمر من ألوان الطيف يعزى إلى تباعد إحدى المجرات عن المجرات الأخرى، وما دام هذا التباعد بين المجرات مستمرا، فإن التمدد في الكون لا يكف عن الحدوث»[2].

ولقد أطلقت أمريكا في عام ١٩٨٩م القمر الصناعي (كوب) على مدارٍ ارتفاعه ٦٥٠ كيلو مترا فوق الأرض، وذلك لإجراء قياسات حرارية للأضواء الصادرة من المجرات، واستطاع هذا القمر أن يسجل الفروق في درجات الحرارة حتى ١/٣٠٠٠٠ من الدرجة المئوية بين نجمين مختلفين، فأعطت هذه الفروق اتجاه حركة كل نجم بالنسبة للآخر. وقد سجل القمر الصناعي منذ إطلاقه وحتى مايو ١٩٩٢م (**٤٥٠**) **مليون** عملية قياس أشارت إلى وجود أجرام كونية على بعد(٩,٤×٢١١٠) مليون كيلو متر، وهذا برهان دامغ على أن الكون يتمدد[3].

ومما يؤكد حقيقة تمدد الكون واتساعه –أيضا– ملاحظة الأمواج الصوتية في معرفة اتجاه حركات النجوم، إذ من المعلوم أن موجات الصوت الصادرة عن جسم متحرك يتجه نحونا تزداد حدتها ارتفاعا كلما ازداد اقترابه منا، وتخفت حدتها وتقل ذبذباتها كلما كان هذا الجسم مبتعدا عنا، وبهذا تبين أن النجوم القريبة منا تتحرك بسرعات تتراوح بين **١٦ – ٥٦** /كم في الثانية، وهي سرعات بسيطة إذا قورنت بسرعة

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٤٧.

(٢) د. موريس بوكاي: التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث. ترجمة: علي الجوهري، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ص٢١٥).

(٣) أنظر: المهندس. سعد شعبان: تمدد الكون في القرآن. مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٤٩٨، إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت، صفر ١٤٢٨هـ/ فبراير ٢٠٠٧م، (ص٣٨).

دوران الأرض حول الشمس والتي تصل إلى **٢٩**/كم في الثانية، لكن سرعة بعض المجرات تصل إلى أرقام خيالية، أي آلاف الكيلو مترات في الثانية أو أكثر[١].

إن هذا النظام الدقيق الذي تعكسه حركات النجوم والمجرات، والتوسع المحسوب للكون من دون أن يحدث فيه أدنى خلل منذ أن خلقه الله تعالى، يمثل توازنا بديعا يعبر عنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[٢].

خامسا: بناء متماسك ومحكم:

إن الذي يمنع سقوف الأبنية من السقوط على ما تحتها هي تلك العمد التي تدفع ضغوط السقوف المحمولة عليها بقوة دفع مضادة ومساوية للضغوط النازلة عليها بحيث تبقى سقوف الأبنية في أماكنها المرتفعة. والسماء بما فيها من نجوم وكواكب ومجرات سيارة بناء متماسك محفوظ من الوقوع، قال تعالى: ﴿ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ ﴾[٤].

قال الطبري: أي «ويمسك السماء بقدرته كي لا تقع على الأرض إلا بأذنه»[٥].

فالنجوم والكواكب وجميع السيارات في السماء ممسوكة بقدرة الله التي خصها بها لتحفظها من السقوط والتصادم مع الأرض، فهي قائمة بأمره وقانونه الصارم الذي يمنع من أن يتطرق إلى هذا التماسك أدنى خلل أو اضطراب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ﴾[٦].

---

(١) أنظر: أنور عبد الغني العقاد: الجغرافيا الفلكية. مرجع سابق، (ص١٧٠، ١٧١).

(٢) سورة الرحمن، الآية ٧.

(٣) سورة الحج، الآية ٦٥.

(٤) سورة فاطر، ٤١.

(٥) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٧، ص١٩٧).

(٦) سورة الروم، الآية ٢٥.

فالسماء وما فيها من الأجرام السيارة المتحركة بسرعات مختلفة ومهولة قد رفعها الله وضبطها بغير أعمدة ترى، كما جاء في قوله تبارك تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[2].

وقد أورد ابن الجوزي في قوله: ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾، قولان:

أحدهما: أن هاء الكناية ترجع إلى السماوات، فالمعنى ترونها بغير عمد. وهو قول يروى عن ابن عباس، وبه قال الحسن وقتادة والجمهور.

والثاني: أنها ترجع إلى العمد، فالمعنى: أنها بعمد لا ترونها، ويروى هذا القول – أيضا– عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وعكرمة، ورجح ابن الجوزي القول الأول[3].

وقد جاء العلم الحديث ليبين أن الجاذبية هي سبب بقاء أجرام السماء في أماكنها ومداراتها المقدرة لها، وأن العمد غير المرئية بالعين المجردة هي قوى الجاذبية بين الكواكب مع بعضها البعض، والذي بموجبها بقيت هذه الأجرام السماوية في مواقعها.

وينضبط ثبات وسير الأجرام السماوية وفق المعادلة التي تقول: «إن تأثير قوى التجاذب = تأثير طاقة الحركة ويكون مضادا له»[4].

فكل جرم في السماء قد قدر وضعه بما يتناسب مع قوة جذبه وحركته بصورة دقيقة تجعله ثابتا في مداره، فلا ينجذب إلى غيره ولا يجذب غيره إليه. وترجع هذه الجاذبية المقدرة بهذه الصورة الدقيقة إلى مقدار الحركة المناسبة لكل جرم من هذه الأجرام، فالحركة الزائدة لأي جرم تجعله ينفلت من موقعه مبتعدا عنه، وهذا بدوره يسبب الاضطراب والتصادم بين هذه الأجرام مع بعضها البعض، وقلة الحركة تسبب الانجذاب إلى الأجرام الأقوى جاذبية، وهذا يؤدي إلى التصادم المريع أيضا.

---

(1) سورة الرعد، الآية ٢.

(2) سورة لقمان، الآية ١٠.

(3) أنظر: ابن الجوزي: زاد المسير. (ج٤، ص٣٠١)، والآلوسي: روح المعاني. مرجعان سابقان، (ج١٣، ص٨٧).

(4) د. عبد العليم خضر: الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن. مرجع سابق، (ص١٤٧).

إن هذا التوازن الدقيق بين قوى التجاذب المساوي لما تحدثه حركة الأجرام من طاقة مضادة هو الذي تماسكت به هذه الأجرام والأفلاك فلم تحد عن مواقعها.

و«من الملاحظ أن لقوى الجاذبية سيادة كونية، فهي ذات مدى تأثير طويل جدا (لانهائي) يعمل على مسافات هائلة. وتحكم هذه القوة جملة الكون الشاملة وتسيطر على حركة المجرات البعيدة عن بعضها البعض بمسافات يستغرق الضوء قطعها ملايين السنين رغم سرعته الخارقة...، بينما تحكم القوى الكهربائية والكهرومغناطيسية العالم المجهري، عالم الجزيئات والذرات ولها السيادة منه، وهي أقوى بكثير من قوة الجاذبية»[1].

إن هذا الانتظام الذي يضبط السماء وما فيها قد عبر عنه القرآن الكريم بجملة قصيرة بليغة، هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾[2].

فقد ورد في تأويل هذه الآية عدة أقوال أهمها:

أنها ذات الخلق الحسن المستوي، وهو قول لابن عباس، وقتادة، وإليه ذهب عكرمة، قال: ألم ترَ إلى النّسّاج إذا نسج الثوب فأجادَ نسجه، قيل: ما أحسن حبكه!.

وقيل: ذات الزينة، وهو قول لسعيد بن جبير[3].

وقيل: هو المتقَن البنيان، وإليه ذهب مجاهد.

وقيل: ذات الطرائق، وهو قول للضحاك[4]، قال: ومنه حَبكَ الرمل والماء إذا ضربهما الريح[1].

---

(1) د. محمد باسل الطائي: خلق الكون بين العلم والإيمان. مرجع سابق، (ص١٢٠، ص١٢١)، وانظر: هارون يحيى: خلق الكون. مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت– لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، (ص٣٤– ٣٥).

(2) سورة الذاريات، الآية ٧.

(3) هو سعيد بن جبير الوالبي مولاهم، الكوفي، الفقيه، أحد الأعلام، ثقة، إمام، حجة، قتله الحجاج كهلا سنة خمس وتسعين وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه. أنظر: الحافظ الفقيه صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي الأنصاري اليمني: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال. تحقيق: عبد الفتاح أبوغدة، مكتب المطبوعات الإسلامية– دار البشائر، حلب – بيروت، ط٥، ١٤١٦ هـ، (ج١، ص١٣٦).

(4) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم، ويقال: أبو محمد الخراساني، هو تابعي جليل، كان إماما في التفسير، قال الثوري: خذوا التفسير عن أربعة: مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك. ووثقه الإمام أحمد بن حنبل، قيل: أنه مات سنة خمس، وقيل: سنة ست ومائة. أنظر: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء: البداية والنهاية. مكتبة المعارف، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٩، ص٢٢٣).

وكل هذه المعاني ظاهرة فيها، فهي محكمة الخلق، متماسكة البناء، شديدة الترابط، ذات مدارات محددة وثابتة لكل الأجرام الجارية فيها، تأخذ بالألباب من حسن التدبير الذي أودعه الخالق العظيم فيها، وهذه المعاني متمكنة في مصطلح التوازن بصورة جلية.

المبحث الثاني
التوازن المناخي

إن التوازن المناخي المستمر على وجه الأرض هو أحد أساسيات بقاء الحياة على وجه هذا الكوكب، فكل عنصر من عناصره المتمثل في درجة الحرارة، والضغط الجوي، والرياح، والأمطار، وغيرها من مظاهر الرطوبة والتكثف لها دور أساسي في إحداث عملية التوازن التي تحتاجه الأرض لتكون صالحة للحياة، وهذه العناصر كغيرها من الأشياء لا تخرج عن عموم التوازن والتقدير الذي قال الله عنه: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[٢]، « أي تقديرا وتوقيتا، أو مقدارا»[٣].

وقال الشنقيطي : «فيه نص صريح أنه تعالى قد جعل لكل شيء من الأشياء أياً كان هو قدراً لا يتعداه لا بزيادة ولا بنقص، ولفظ شيء أعم العمومات. وقد جاءت آيات كثيرة دالة على هذا العموم ...، فمن الآيات العامة قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[١]، وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ

---

(١) أنظر: أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري: الكشف والبيان. تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، (ج٩، ص١١٠)، وعبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي: تفسير القرآن(تفسير ابن أبي حاتم). تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج١٠، ص٣٣١١).

(٢) سورة الطلاق، الآية ٣.

(٣) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. (ج٨، ص٢٦٢)، وانظر: ابن الجوزي: زاد المسير. (ج٨، ص٢٩٢)، والكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل. مراجع سابقة، (ج٤، ص١٢٧).

(٤) سورة القمر، الآية ٤٩.

﴿بِمِقْدَارٍ﴾[٢]»[٣]، وسيتم تناول هذه العناصر بصورة فردية لبيان بعض ما تحدثه من توازنات هامة في مناخ الأرض، وذلك كما يأتي:

أولا: الحرارة:

الحرارة كغيرها من الأشياء قدرها الخالق الحكيم بتقدير دقيق لتحقيق التوازن على وجه هذه الأرض، ورغم ما تقذفه الشمس من حرارة هائلة، فإن ما يصل إلى الأرض من هذه الطاقة الشمسية يعتبر يسيرا جدا، وهو ما تقوم به الحاجة وتتحقق به المصلحة، حيث وقدّر العلماء أن «ما يصل إلى الأرض من طاقة شمسية لا يزيد عن **جزء** من **ملياري جزء** من طاقتها الكلية، وهذا ما يعادل(**١,٣×١٠قوة٢٤**) حريرة في سنة أو ما يوازي عمل**٥٤٣** مليار محطة توليد كهرومائية بطاقة**٤٠٠** حصان بخاري لكل محطة»[٤].

وتتوزع هذه الطاقة الحرارية على أنحاء الكرة الأرضية، وتتفاوت هذه الحرارة قوة وضعفا وزيادة ونقصانا على أجزاء الكرة الأرضية بحسب زاوية سقوط أشعتها، ومدة إشعاعها، وبصفاء الجو من الغيوم والغبار أو عدمه، وبحالة التضاريس وشكل الأرض، وكل هذه العوامل تساهم في التوازن المناخي للأرض.

أضف إلى ذلك أن الأشعة الممتصة من سطح الأرض يتم توزيعها عن طريق الرياح والتيارات المائية على نطاق واسع من أجزاء الأرض، فيتم تدفئة المناطق الباردة بالحرارة التي تمكن الكائنات الحية من البقاء.

وعند التأمل في درجات العرض يتبين أن هناك ترتيبا متوازنا لكمية الحرارة، فتبلغ الحرارة شدتها في خط الاستواء بسبب تعامد الشمس على هذا المكان من الأرض، ثم تخف حدتها كلما ابتعدنا باتجاه القطبين؛ لأن الأشعة كلما ازداد ميولها، فإن تركيزها يقل ويضعف أكثر فأكثر بسبب طول المسافة الزائد التي تقوم بقطعها.

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٢.

(٢) سورة الرعد، الآية ٨.

(٣) الشنقيطي: أضواء البيان. مرجع سابق، (ج٨، ص٢١٣).

(٤) د. شاهر جمال آغا: الأرض في القرآن الكريم. دار الكتاب الثقافي، إربد- الأردن، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، (ص١٠٩)، نقلا عن: مجموعة العلماء فيزياء الجو موسكو ١٩٨٧.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك توازنا دقيقا فيما يصل إلى الأرض من حرارة فتختزنها، وبين ما تقوم الأرض بفقده ورده بالانعكاس مرة أخرى إلى السماء.

فهناك مكسب حراري مستمر، وفي نفس الوقت هناك عملية فقدان أو خسارة مستمرة، وعلى الرغم من وجود التفاوت بين الأقاليم في الوفر الحراري الذي تكتسبه، كالوفر الكثير في الأقاليم المدارية، والعكس من ذلك في الأقاليم القطبية الذي قد يصل إلى العجز الحراري المستمر، إلا أن الميزانية الحرارية للأرض كلها يجب أن يتعادل فيها تقريبا مجموع المكسب من مجموع الخسارة. ويحدث هذا التعادل نتيجة للعوامل الجغرافية والجوية التي تؤدي إلى حدوث تبادل حراري بين الأقاليم بعضها وبعض. ونتيجة لهذا التبادل فإن الميزانية العامة للأرض كلها تظل ثابتة تقريبا من سنة إلى
أخرى، وبهذه الطريقة وحدها بقيت حرارة جو الأرض ملائمة للحياة.

فلو كان المكسب الحراري أكثر دائما من الخسارة لتزايدت بمرور الزمن حرارة سطح الأرض وجوها بدرجة قد تؤدي إلى عدم إمكان ظهور الحياة، ولو فرض وحدث العكس لتناقصت الحرارة بمرور الزمن ووصلت البرودة إلى حد لا يسمح كذلك بقيام حياة[1].

ويمكن تمثيل العناصر المكونة للإشعاع الجوي بهذه الرموز (ر= **د** + أ + **س**).

ر – مجموع الأشعة الشمسية الواصلة إلى الغلاف الجوي العلوي.

د – الأشعة الإجمالية المباشرة والمبعثرة الممتصة من سطح الأرض يابسة وماء.

أ – الأشعة التي يمتصها الغلاف الجوي من الأشعة الشمسية.

س – الأشعة التي يعكسها الغلاف الجوي لدى وصول أشعة الشمس إلى السطح العلوي للغلاف الجوي إلى الفضاء الخارجي(٣١%)، و(٤%) يعكسه سطح الأرض.

وإذا عبرنا عما سبق بالنسب المئوية وجدنا الآتي:

ر(١٠٠%) = د (٤٨%) + أ (١٧%) + س (٣٥%) = ١٠٠%.

أما ما يصل فعليا إلى الغلاف الجوي وسطح الأرض فإنه يعادل(٦٥%) من مجموع الأشعة الشمسية: **ر(١٠٠%) = د(٤٨%) + أ(١٧%) – س(٣٥%) = ٦٥%.**

---

(١) د.عبد العزيز طريح شريف: المقدمات في الجغرافيا الطبيعية. مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٥م، بتصرف، (ص٢٧٠).

وهكذا، فإن ما يمتصه من أشعة فعليا من قبل سطح الأرض يعادل **٤٨%** من الأشعة الإجمالية؛ لأن **(١٧%)** يمتصه الجو، و**(٤%)** يعكسه سطح الأرض إلى الجو، وتتكون نسبة: **(٤٨%)** من الإشعاع الأرضي الفعال، وكذلك **(١٨%)** من الأشعة التي يمتصها سطح الأرض، و**(٣٠%)** هو ما يمثل التوازن الإشعاعي الطاقي الأرضي.

وأما كيفية تصريف نسبة ال**(٣٠%)**، فإن عمليات التبخر تأخذ نسبة**(٢٢%)**، وتأخذ عمليات التبادل الإشعاعي والحراري – المضطرب الجوي الأرضي – **(٨%)**، وهكذا نجد التوازن الإشعاعي الطاقي لسطح الأرض: **٣٠% – (٢٢% + ٨%) = ٠**

أي ما يكتسبه سطح الأرض(يابسة وماء)يخسره ثانية، فلا تسخين زائد ولا تبريد كبير.

وأما **(١٧%)** من الأشعة التي يمتصها الجو فيصرف كما يلي:

(٣%) تمتصه طبقة الأوزون، و**(١٣%)** يمتصه بخار الماء، و**(١%)** تمتصه السحب.

أ = ١٧% – (٣% + ١٣% + ١%) = ٠، فمجموع ما يمتصه الجو يعود مرة ثانية إلى الفضاء؛ لأن ما يمتص من الأشعة يطلق ثانية بعمليات معاكسة، فالتكاثف (امتصاص)، يقابله تبخر (صرف الطاقة)، وهكذا.

ويبدو التوازن الإشعاعي الحراري الجوي والأرضي كالآتي:

(٦٥% – (٤٨% + ١٧%) = ٠، وبهذا يحافظ الغلاف الأرضي الجغرافي على طاقة حرارية متوازنة ومناسبة تماما للظروف الحياتية وغير الحياتية ضمن الغلاف الأرضي الجغرافي، فلا تزداد الطاقة ولا تتدنى كذلك[١].

فظهر من النسب السابقة التوازن الكامل في قيم الطاقة الحرارية التي تمتصها الأرض، وأن ما تكسبه من حرارة يساوي ما تخسره من دون زيادة أو نقصان، وهذا هو مما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [٢].

ثانيا: الضغط الجوي:

«يقصد بالضغط الجوي ... فوق أي نقطة ما من سطح الأرض: وزن عمود الهواء الممثل فوق هذه النقطة حتى نهاية الأطراف العليا للغلاف الجوي»[١].

---

(١) د. شاهر جمال آغا: الأرض في القرآن الكريم. بتصرف، مرجع سابق، (ص١١٠-١١٢).

(٢) سورة الفرقان، الآية ٢.

والضغط كغيره يخضع لقانون التوازن الذي يسير به الوجود كله، وهو يضغط على ما تحته من الأشياء بضغط يبلغ أشده على أدنى شيء يقع في أسفل عمود الهواء.

ويُحدِث الغلاف الجوي عند سطح البحر وعلى كل سطح صلب أو سائل معرض للهواء ضغطا يساوي نحو **١٥**رطلا على البوصة المربعة (نحو **١**كجم/للسنتيمتر المربع)، فالضغط الجوي يوازن وزن عمود الزئبق، فإذا ارتفع الضغط الجوي ارتفع عمود الزئبق، وإذا انخفض الضغط الجوي انخفض عمود الزئبق كذلك، فعمود الزئبق ينخفض بمقدار **١/٣٠** من وزنه كلما ارتفعنا **٩٠٠** قدما **(٢٧٥م)**، ويقل معدل الانخفاض

كلما ارتفعنا حتى يتلاشى هذا الانخفاض تقريبا بعد ارتفاع٣٠ ميلا(٥٠ كم).

والهواء أيضا قابل للانضغاط، فما يقع أسفل عمود الهواء هو الأكثر انضغاطا، ومن ثم الأثقل كثافة، وكلما ارتفعنا يخف الضغط والكثافة باستمرار وبسرعة.

وضغط الجو عند سطح البحر عادة **٢٩, ٩٢** بوصة أو ٧٦ سم**(٧٦٠مم)**، ويقاس أيضا بالميلليبار **(مب)**، فالبوصة من الزئبق تساوي **٣٩,٩مب**، وبالتالي فالضغط الجوي عند سطح البحر بالميلليبار عادة **١٠١٣,٢مب**، وكل **١/١٠** بوصة من الزئبق تساوي **٣**مب، أي أن**(٠,١ بوصة = ٣,٣٩ مب)**[٢].

وبما أن «مساحة كل(١سم مربع) تتحمل ضغطا جويا معادلا لوزن عمود من الزئبق ارتفاعه(٧٦سم)، وبما أن وزن كل(سم^{٣}) من الزئبق تساوي(١٣,٦غرام)، فإن هذا الضغط يقدر بما يلي: ٧٦×١٣,٦= ١٠٣٣غرام، أي(١,٠٣٣كغ /سم^{٢})، فالمساحة السطحية لجسم الإنسان المتوسط تبلغ (١٥٠٠سم^{٢})، وهي تحمل ضغطا جويا قدره (١٥٥٠٠/كغ) تقريبا»[٣].

---

(١) أ.د. حسن أبو العينين: من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في ضوء الدراسات الجغرافية الفلكية والطبيعية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، (ج٢، ص١٩٧).

(٢) آرثر استريهلر: الجغرافيا الطبيعية (الكرة الأرضية – المساقط – الغلاف الجوي – والغلاف المائي). ترجمة: د. محمد السيد غلاب، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، مصر، ١٩٩٨م، بتصرف، (ج١، ص٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨١).

(٣) فوزي حميد: الجغرافية القرآنية برهان خارق على عظمة الخالق. دار الصفدي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، (ص١٨٩، ١٩٠).

فكيف لأجسام الكائنات الحية أن تتحمل هذا الثقل الذي يسحق أي كائن حي؟ بل والأعجب من ذلك أن الإنسان وغيره من المخلوقات الحية لا يشعرون بهذا الحمل الهائل مطلقا على أجسامهم! إن الجواب على هذا السؤال يكمن في التوازن الذي قدره المولى عز وجل.

فلقد جعل الله تعالى داخل أجسام الكائنات الحية ومنها الإنسان ضغطا داخليا معاكسا ومساويا للضغط الخارجي، وبالتالي«لا يسبب وزن الهواء الموجود دائما أي قلق لنا؛ لأن ضغطه متعادل دائما مع الهواء الموجود داخل السوائل، أو الثقوب، أو المواد المسامية»[1].

لقد انتفع الإنسان كثيرا بهذا الاكتشاف، فصمم على وفق ذلك الآلات المناسبة

التي تُبقي التعادل قائما بين الضغط الداخلي للجسم وبين ضغط الهواء الموجود خارجه إذا كان الإنسان في مكان يستلزم إحداث تعادل في الضغط، ومثال ذلك الطيارون الذين يصعدون إلى ارتفاعات عالية يقل فيها الضغط الجوي، فإن طائراتهم تعد بدقة متناهية لمعادلة هذا النقص في الضغط الجوي، ولولا ذلك لانفجرت الدماء في أجسامهم بسبب الضغط الداخلي الذي لا يقابله ضغط خارجي مماثل يقوم بمعادلته فيحافظ على التوازن ويمنع الاختلال.

إن توازن الضغط القائم بهذه الصورة الدقيقة هو الذي يحافظ على بقاء الحياة للكائنات على وجه الأرض، فلو لم يكن هناك ضغط مضاد في داخل أجسام الكائنات الحية لسحقت هذه الأجسام ولما استطاعت الأحياء أن تخرج إلى الحياة تحت هذا الضغط الثقيل للهواء، ولو قل الضغط الخارجي للهواء عن مقداره المحدد له، فإن الضغط الذي تحدثه السوائل داخل أجسام الكائنات الحية سيكون كبيرا، ولا يجد هذا الضغط ضغطا آخر مضادا له يقوم بدفعه وكبح جماحه فيبقيه على وضعه المعتاد له كما هو الحال في سائر أجسام الأحياء، الأمر الذي يجعل الدماء تنفجر من كل عرق

---

(1) آرثر استريهلر: الجغرافيا الطبيعية. مرجع سابق، (ص٢٧٩).

في جسم الكائن الحي نتيجة لغياب الضغط الجوي الخارجي، وبالتالي فإن الحياة تصبح مستحيلة بسبب غياب ماء الحياة وعدم جريانها في عروق الكائنات الحية.

وللضغط الجوي توازن منتظم في توزعه على سطح الأرض نتيجة لتأثره بعدة عوامل، كعدد ساعات شروق الشمس فوق المكان، والتيارات البحرية المتنوعة، والغطاء النباتي، ومدى الارتفاع عن سطح البحر، والكتل الهوائية، وتأثير الرياح المحلية. إلا أن لموقع المكان بالنسبة للدائرة الاستوائية، واختلاف التوزيع الجغرافي بين اليابس والماء أكبر الأثر في حدوث هذه التغيرات الأفقية للضغط الجوي على سطح الأرض، فعند التأمل في توزيع نطاقات الضغط الجوي يتبين الترتيب المثالي لنطاقات الضغط مع دوائر العرض المختلفة. وتكاد هذه النطاقات تتفق مع النطاقات الحرارية الكبرى فوق سطح الأرض، ويتلخص هذا النظام فيما يلي:

أ- نطاق الضغط المنخفض الاستوائي:

وهذا النطاق يمتد فيما بين دائرتي عرض **٥°** شمالا وجنوبا. ويقل فيه الضغط الجوي عن **١٠١٣,٢**ملليبار، ويطلق عليه اسم نطاق الضغط المنخفض الاستوائي الدائم أو الرهو (الركود) الاستوائي، وتنجذب نحوه الرياح التجارية الآتية من المناطق المدارية.

ب- نطاقا الضغط المرتفع شبه المداري بنصفي الكرة الأرضية:

في هذين النطاقين بنصفي الكرة الأرضية يهبط الهواء من أعلى إلى أسفل فيما بين دائرة عرض **٢٥°- ٣٥°** شمالا وجنوبا، وتسمى هذه العروض باسم عروض الخيل، وتخرج منها الرياح التجارية الشمالية الشرقية في نصف الكرة الجنوبي، وتتجه نحو مناطق الرهو الاستوائي لتحل محل الهواء الصاعد إلى أعلى في هذه المناطق.

ج- نطاقا الضغط شبه المنخفض أو دون القطبي:

ويتمثل هذان النطاقان فيما بين دائرتي عرض**٦٠°- ٦٥°** شمالا وجنوبا تقريبا.

ويتكون الضغط المنخفض الفصلي هنا تبعا لصعود الهواء إلى أعلى من جهة، ولزيادة نسبة الرطوبة من جهة أخرى، وتتجه إلى هذين النطاقين الرياح العكسية الغربية، والرياح القطبية(الشمالية في نصف الكرة الشمالي والجنوبية في نصف الكرة الجنوبي).

د- نطاقا الضغط المرتفع عند القطبين:

ويتكونان تبعا لهبوط الهواء من أعلى إلى أسفل لشدة برودته، وتتجه من هذين النطاقين الرياح القطبية (الشمالية والجنوبية في نصفي الكرة الأرضية) نحو نطاقي الضغط المنخفض شبه القطبي في نصف الكرة الأرضية[1].

وبهذا التقدير المنتظم لنطاقات الضغط على وجه الكرة الأرضية يتبين التوازن البديع الذي قدره الخالق الحكيم.

ثالثا: الرياح:

الرياح مقدرة ومسخرة بأمر الله تعالى، وهي من الآيات التي لفت القرآن الكريم أبصار الناس وعقولهم إلى التأمل فيها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3]، فمن الآيات اللافتة للنظر فيها أنها تخضع لقانون التوازن العام مثلها مثل غيرها من الأشياء، وتشترك مع بقية عناصر المناخ في ضبط التوازن المناخي للكرة الأرضية.

ومن الجدير بالذكر أنه يطلق على الهواء المتحرك فوق سطح الأرض في أي مستوى من الجو اسم الرياح، ولهذه الحركة الأفقية للرياح قوانين تنظم حركتها، وهي كما يلي:

١. قوة تحدّر (تدرج) الضغط:

وتعد هذه القوة هي المولدة للحركة الهوائية من مركز الضغط المرتفع باتجاه مركز الضغط المنخفض، فكلما ازدادت قيمة تدرج الضغط في واحدة المسافة ازدادت شدة انحدار الضغط، والعكس صحيح[4].

---

(١) أ.د. حسن سيد أحمد أبو العينين: أصول الجغرافيا المناخية. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، بتصرف، (ص١٥٣، ١٥٤).

(٢) سورة البقرة، الآية ١٦٤.

(٣) سورة الجاثية، الآية ٥.

(٤) أ.د. علي حسن موسى: أساسيات علم المناخ. دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، دار الفكر، دمشق – سورية، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، بتصرف، (ص٧٥).

ولعل أبسط مثال لعلاقة الرياح بقوة تدرج الضغط هي ظاهرة نسيم البر ونسيم البحر، ففي النهار يحدث تسخين أسرع للهواء الملامس لليابس من الهواء الملامس للبحر، وهذا يتسبب في اختلاف الضغط الجوي على اليابس عنه في البحر، ويتحرك الهواء من الضغط الجوي المرتفع فوق البحر إلى الضغط الجوي المنخفض فوق اليابس، وهذا هو نسيم البحر.

وتحدث حركة عكسية عند المرتفعات العليا، ومع ارتفاع الهواء ارتفاعا طفيفا من جهة، وهبوطه من جهة أخرى تحدث دورة كاملة للهواء، وفي المساء عندما يفقد اليابس جزء من حرارته، ويحدث به تلطيف للحرارة، يصبح الهواء الأسفل أبرد فوق اليابس عنه فوق البحر ويحدث ضغط مرتفع فوق اليابس وينعكس تدرج الضغط الجوي، ويتحرك الهواء من اليابس إلى البحر على شكل نسيم البر[١].

٢. قوة الأرض الحارفة:

بدوران الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق تنحرف الأجسام المتحركة فوقها ومنها الريح إلى يمين وجهتها الأصلية التي حددتها قوة تحدر الضغط في النصف الشمالي للكرة الأرضية، وتنحرف إلى يسار وجهتها الأصلية في نصف الكرة الجنوبي، وتعرف هذه القوة بقوة كوريولس[٢]، حيث تبلغ قوة الأرض الحارفة أشدها عند القطبين وتنعدم عند خط الاستواء؛ لأن سرعتها الأشد تكون في منطقة استوائها، بينما تقل سرعتها بالابتعاد عنها، وهذه القوة تؤثر على اتجاه الريح فقط دون سرعتها.

٣. قوة الاحتكاك:

عندما تحتك الرياح بالسطح الخشن للأرض تقل سرعتها وتتغير وجهتها بقدر ازدياد خشونة هذا السطح، وتزداد سرعتها كلما ابتعدت عن سطح الأرض، فتتدنى سرعتها فوق اليابسة إلى نحو **ثلث** سرعتها في خارج طبقة الاحتكاك، وتتدنى فوق

---

(١) أنظر: آرثر استريهلر: الجغرافيا الطبيعية. مرجع سابق، (ج١، ص٣٨٨ –٣٩١).

(٢) نسبة إلى جاسبار كوريولس، عالم الفيزياء الفرنسي، عاش خلال الفترة ١٧٩٢م – ١٨٤٣م، وأوضح رياضيا تأثير دوران الأرض على الأجسام المتحركة فوقها عام ١٨٣٥م. أنظر: أ.د. علي حسن موسى: أساسيات علم المناخ. مرجع سابق، (ص٧٦).

المسطحات المائية الملساء إلى نحو **ثلثي** سرعتها خارج طبقة الاحتكاك(فوق ارتفاع **١٠٠٠م**).

وتعمل خشونة السطح على الإقلال من انحراف الرياح التي تسببه قوة الأرض الحارفة، وتدفعها لأن تقطع خطوط الضغط المتساوية بشكل زاوي مقداره **٢٥°- ٣٥°** درجة فوق اليابسة، وبين **١٠°- ٢٠°** درجة فوق المسطحات المائية.

٤. قوة التسارع المركزية:

عندما يتحرك جسم في مسار منحن، فإنه ينجذب مسرعا نحو مركز دورانه بما يتناسب مع كتلته وسرعته ونصف قطر انحناء مساره، وكلما ازداد الانحناء وقلت سرعة الجسم المتحرك ازدادت قوة التسارع نحو المركز، والعكس صحيح.

إلا أن هناك قوة معاكسة لقوة التسارع المركزية تعرف بالقوة الطاردة المركزية، وهي مساوية لقوة التسارع المركزية في القيمة ومعاكسة لها في الاتجاه، حيث تعمل على إبعاد الجسم المتحرك في مساره المنحني عن مركز دورانه، وكلما كانت سرعة الجسم المتحرك أكبر والانحناء أشد ازدادت قوة الطرد المركزية.

وبما أن الرياح تتحرك عموما في مسارات شبه دائرية حول مركز الضغط المرتفع والمنخفض، فإن هذه القوة لا تظهر بشكل واضح في المرتفعات الجوية، وتظهر بوضوح في المنخفضات الكبيرة الشديدة العمق وقليلة الاتساع، والتي تصل فيها سرعات الرياح إلى مرحلة الإعصارية والدوامات الهوائية الصغيرة الحجم.

وتعمل القوة الطاردة المركزية عكس وجهة قوة تدرج الضغط في منظومة الضغط المنخفض، ففي المناطق البعيدة عن خط الاستواء تعمل عند السطح مع قوة الأرض الحارفة في وجهة واحدة، لكنها في العروض المنخفضة قريبا من خط الاستواء حيث تنعدم قوة الأرض الحارفة، فإنها تعمل بمفردها في عكس قوة تدرج الضغط المتوازن معها، وتجعل الرياح تتحرك بشكل دوراني حول مركز الضغط المنخفض[١].

---

(١) أنظر: أ.د.علي حسن موسى: أساسيات علم المناخ. مرجع سابق، (ص٧٦ – ٨٠)، وانظر: د.أحمد سعيد حديد، د. إبراهيم شريف، د. فاضل الحسني. جغرافية الطقس. للصفوف الأولى بكلية التربية. طبع على نفقة جامعة بغداد، ١٩٨٤م، (ص١٥١- ١٥٤).

وهكذا يظهر التوازن المناخي جليا من خلال تبادل الكتل الهوائية والحرارية والرطوبية بين نطاقات العروض الدنيا والعليا والمتوسطة والقطبية، فالنطاق الاستوائي والمداري الساخن مثلا: يدفع بالهواء عاليا، فتتشكل كتل هوائية عالية الضغط، فتندفع هذه الكتل باتجاه مناطق الضغط المنخفضة في منطقتي القطبين الشمالية والجنوبية، فتخفض من البرودة الشديدة فيها، وبالمقابل تتجه الكتل الهوائية القطبية وشبه القطبية نحو العروض الدنيا الأكثر حرارة فتخفض من الحرارة فيها، وتؤدي إلى ظهور جبهات جوية مكونة للأمطار والثلوج(١).

إن هذا التبادل الذي يحدث بين نطاقي الضغط المرتفع والمنخفض على الكرة الأرضية متوازن جدا بحيث لو حدث خلل في هذا الأمر لحدث اضطراب كبير للأرض وللأحياء التي تعيش على ظهرها.

ولنا أن نتخيل أن هذا التبادل القائم بين النطاقات العالية والمنخفضة قد توقف، فإن النطاقات الحارة ستزداد حرارة والنطاقات الباردة ستزداد برودة، ويترتب على ذلك ظهور نطاقين حراريين كبيرين أحدهما بارد جدا في العروض المتوسطة والعليا، والآخر حار جدا يتركز في النطاق الاستوائي والمداري، وسيترتب على هذا الأمر الاتساع الكبير للمناطق الصحراوية بسبب شدة التبخر في النطاقات الحارة، وستظهر في المناطق القطبية الصحاري الباردة؛ لأن الكتل الهوائية الباردة كثيرا فقيرة جدا بالرطوبة الجوية.

وبالنسبة للدور التوازني الذي يلعبه تعاكس اتجاه التيارات الريحية بالنسبة لحركتي الأرض الدورانية، فالرياح قوة دفع وقوة احتكاك في آن واحد، فلو كانت كل الرياح غربية الاتجاه لازدادت سرعة الأرض الدورانية حول نفسها(فيقصر اليوم)، وحول الشمس(فتقصر السنة)، ولو حدث العكس فاتجهت الرياح شرقا عكس حركة دوران الأرض لتباطأت حركة الأرض الدورانية، ولطال اليوم وطالت السنة ولتبدلت قيم القوة النابذة واختل التوازن الحركي للأرض(٢).

ويظهر التوازن الدقيق في تدني سرعة الرياح على اليابسة بسبب ما يكبح جماحها من السطوح الخشنة كالجبال والأخاديد التي تقوم بتخفيف سرعتها بتصريفها في

---

(١) د. شاهر جمال آغا: الأرض في القرآن الكريم. بتصرف، مرجع سابق، (ص٨٨).

(٢) د. شاهر جمال آغا: الأرض في القرآن الكريم. بتصرف، مرجع سابق، (ص٨٨، ٨٩).

الاتجاهات المختلفة حتى تكون بالقدر المناسب لحياة الناس والكائنات الحية، إذ لو بقيت على سرعتها وقوتها لتعذرت الحياة ولما استقام للناس على الأرض بناء.

ويلاحظ في الوقت نفسه أن سرعة الرياح فوق المسطحات المائية أكبر منه على اليابسة، وذلك لما تحتاجه هذه المسطحات من تحريك لمياهها بالقدر الذي تنتفع به الكائنات الحية في باطنها، وبالقدر الذي تتحرك به الفلك على ظهرها بما ينفع الناس، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1]، وقال: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]، فالتوازن والتقدير من أعظم آيات الله تعالى التي تضمنته الرياح.

رابعا: الرطوبة الجوية:

لقد أشار القرآن الكريم إلى التوازن الرطوبي في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[5].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وما من شيء من الأمطار إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر لكل أرض، معلوم عندنا حده، ومبلغه»[6].

وقال الشوكاني: «أي ما ننزله من السماء إلى الأرض أو نوجده للعباد إلا بقدر معلوم ...، والمعنى أن الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئا من تلك الأشياء المذكورة إلا متلبسا ذلك الإيجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار حاجة العباد إليه»[7].

---

(1) سورة الشورى، الآية ٣٢، ٣٣.

(2) سورة الجاثية، الآية ٥.

(3) سورة المؤمنون، الآية ١٨.

(4) سورة الزخرف، الآية ١١.

(5) سورة الحجر، الآية ٢١.

(6) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٤، ص١٨).

(7) الشوكاني: فتح القدير. (ج٣، ص١٢٦، ١٢٧)، وانظر: السمعاني: تفسير القرآن. (ج٣، ص١٣٤)، والسمرقندي: بحر العلوم. مراجع سابقة، (ج٢، ص٢٥٣).

وتتمثل الرطوبة الجوية في كل ما هو موجود في الجو من ماء بأي صورة كانت، سواء كان ذلك تبخرا أو تكاثفا في صورة سحب أو ضباب أو ندى أو قطيرات ماء أو بلورات ثلج أو جليد. ومن المعلوم أن الرطوبة الجوية تخضع لتوازن دقيق في دورتها المستمرة التي تسير عليها، ويشترك في تفعيل هذا النشاط الرطوبي كل من: الحرارة، والهواء الجاف، وسرعة الرياح، والاتساع للسطوح المائية.

ويمكن توضيح حقيقة التوازن الرطوبي من خلال مقادير التبخر السنوية الثابتة «حيث تقدر الأبحاث الحديثة أنه في الثانية الواحدة يتبخر من الأرض تقريبا **١٦مليون** طن من المياه، وهذا يعني أن الكمية التي تتبخر في السنة الواحدة تبلغ **٥١٣ تريليون** طن من الماء. هذا الرقم مساو لكمية المطر التي تنزل على الأرض خلال سنة»[١].

بل إن ما ذكره علماء المناخ من ثبات كمية المطر النازلة سنويا على الأرض قد وردت الإشارة إليه صراحة في السُّنة الشريفة، كما في الحديث الذي رواه ابن عباس-ﷺ-: "ما من عام أمطر من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء، ثم قرأ: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ** ﴾[٢] "[٣]، وقد جاء عن الحسن في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾[٤]، أنه قال: «ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله عز وجل يصرفه حيث يشاء وربما كان ذلك في البحر...»[٥].

وهنا يتضح أن ما ينزل من المطر سنويا هو ثابت لا يتغير، وإنما التغير في تصريفه على بقاع الأرض وجهاتها المختلفة.

---

(١) هارون يحيى: المعجزات القرآنية. مؤسسة الرسالة ناشرون للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، (ص٤٠).

(٢) سورة الفرقان، الآية ٥٠.

(٣) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى. (ج٣، ص٣٦٣، حديث رقم: ٦٢٧٥)، وأورده الحاكم في المستدرك على الصحيحين. مرجعان سابقان، (ج٢، ص٤٣٧، حديث رقم: ٣٥٢٠)، وقال عنه: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٤) سورة الحجر، الآية ٢١.

(٥) عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني أبو محمد: العظمة. تحقيق: رضا الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ، (ج٤، ص١٢٧٤).

وأيضا يمكن ملاحظة التوازن الدقيق كذلك في الارتباط القوي بين نطاقية توزيع مراكز الضغوط الجوية ونطاقية الهطول، وإذا ما تم التدرج من القطبين نحو النطاق الاستوائي فيُلاحظ تناوبا في توزع مراكز الضغوط الجوية:

١- في القطبين يسيطر الضغط العالي، وبالتالي فالهطول قليل.

٢- في النطاقين المتوسطين يسيطر الضغط المنخفض، وبالتالي فالهطول جيد.

٣- في النطاق الشبه مداري والمداري العالي الضغط، فإن الهطول يصل إلى أدناه.

٤- في النطاق الاستوائي المنخفض الضغط دائما يكون الهطول هو الأكثر.

إن هذا التناوب بين النطاقات يمثل توازنا بديعا ومقدرا من الباري جل شأنه القائل: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾[١].

وتجدر الإشارة إلى أن الأقاليم المدارية وشبه المدارية الجافة أقاليم خاسرة للرطوبة؛ لكونها الأكثر حرارة وجفافا وتبخرا، إذ أن(**سم**^{٣}) يخسر قرابة(**١٠٠-١٥٠/غ**) سنويا في مراكز مناطق الضغوط العالية وتقل الخسارة إلى (**٢٥-٥٠/غ**) عند هوامش المناطق المذكورة، وبالتالي فالتبخر أكثر بكثير من كمية الهطول السنوية (**٢٠٠-٣٠٠**ملم هطول) و(**٢٠٠٠-٣٠٠٠**) تبخر.

إلا أن هناك نطاقات رابحة تفوق فيها كميات الهطول على كميات التبخر السنوية، كما في النطاقين المعتدل والقطبي، علما بأن الضغوط المنخفضة تسيطر في النطاق المعتدل المتوسط وتسيطر الضغوط العالية في القطبي، ويصل الربح الرطوبي إلى (**٥٠-١٠٠/غ**) سنويا، ويتدنى في هوامش هذه النطاقات إلى(**٢٥/غ**)، ويتميز النطاق الاستوائي بأن الهطول أكبر من التبخر حيث يصل الربح إلى(**٥٠-١٠٠/غ**) في مراكز الضغوط المنخفضة حيث التكاثف البخاري الأشد، ويقل الربح في الهوامش إلى (**٥٠غ/سنة**، وهكذا لو دققنا النظر لوجدنا التوازن الحراري والرطوبي الرائع، والذي لولاه لتغير مظهر الغلاف الأرضي الجغرافي كاملا[٢].

---

(١) سورة السجدة، الآية ٧.

(٢) د. شاهر جمال آغا: الأرض في القرآن الكريم. بتصرف، مرجع سابق، (ص١٣٢).

فتبين بهذا التوازن الرطوبي خصوصا، والتوازن المناخي عموما، وصدق الله القائل: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[1].

المبحث الثالث

التوازن الجيولوجي[2]

أولا: التوازن الحركي للأرض:

([1]) سورة القمر، الآية ٤٩.

([2]) الجيولوجيا: مصطلح معرب عن الأصل الأوروبي المشتق من الأساسين الإغريقي (Ge)، ومعناها الأرض. (Logos) ومعناها الكلام المنطقي أو العلم. وعلى هذا فكلمة (جيولوجيا) معناها: علم الأرض. وميدان الجيولوجيا واسع، فهو لا يتناول الأرض كبيئة للإنسان فحسب، بل يدرسها من حيث كونها كوكب سماوي، ويدرسها –أيضا– من حيث تركيبتها الداخلية والخارجية، وما يعتمل بداخلها أو على سطحها من ظواهر طبيعية وكيميائية وحيوية. أنظر: د. محمد إبراهيم فارس، د. محمد يوسف حسين، د. مراد إبراهيم يوسف: قواعد الجيولوجيا العامة. دار النهضة العربية، القاهرة، ط٤، ١٩٧٢، (ص٨).

الأرض بناء متزن، فرغم حركاتها المستمرة والدائمة، كالتي في الفضاء أو تلك التي تحدث في باطنها، إلا أن أحدا لا يشعر بأي اضطراب على ظهرها، بل الحاصل هو الثبات والاستقرار، ولقد وصف الله تعالى الأرض بكونها ثابتة ومستقرة بقوله: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾[1]، وأشار في آية أخرى إلى أن الاستقرار والسكون الحاصل في الأرض لا يُعنى به نفي حركتها، وإنما المقصود استقرارها بالنسبة لما عليها من المخلوقات مع حركتها الدائبة والمستمرة في الوقت نفسه، ولذلك استخدم في الآية الأخرى لفظ (لَكُمْ) فقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾[2].

ومثَلُ قرار الأرض بالنسبة لما عليها مع حركتها في نفس الوقت، كمثل طائرة تطير في الفضاء وعلى ظهرها ركابها، فهي بالنسبة لهم قرار، وهي في نفس الوقت تقطع المسافات والأميال، وكذلك الحال بالنسبة للأرض، فلها دورة حول نفسها ودورات أخرى متعددة ضمن المجموعة الشمسية، بالإضافة إلى ما يحدث في باطنها المنصهر من حركة واضطراب بسبب الحرارة العالية وشدة الضغط والذي عبر عنه القرآن الكريم بلفظ **المور**، كما في قوله عز وجل: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾[3].

ولعظمة التقدير في التوازن الذي جعل الأرض مستقرة رغم ما تتعرض له من حركات واضطرابات، فقد لفت القرآن الكريم الأنظار إلى التأمل في هذا الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[4].

فظهر بهذا أن الميزان الذي رفعت به السماء هو الميزان نفسه الذي وضعت وصممت به الأرض، ولذلك جاء العلم الحديث ليبين أن هذا الاستقرار الذي عليه الأرض هو نتيجة لوقوعها تحت نطاق جاذبي متوازن يضبط حركتها في الفضاء، ويضبط ما على قشرتها من بناء. فحجمها المناسب، وموقعها الدقيق قربا وبعدا من الشمس والقمر، ودورانها حول محورها، هو الذي جعل الجاذبية مناسبة لكي تبقى

---

(1) سورة النمل، الآية ٦١.

(2) سورة غافر، الآية ٦٤.

(3) سورة الملك، الآية ١٦.

(4) سورة النمل، الآية ٨٨.

الأرض في موقعها ومدارها المحددين من دون أن تنجذب هي إلى الشمس أو تجذب القمر إليها أو أن ينجذب جزء مما على قشرتها نحو القمر. فظاهرة المد والجزر التي تحدث في البحار والمحيطات إنما تحدث نتيجة الجذب المتبادل بين قوتي الأرض والقمر، وظهور هذا الأمر في المياه دون اليابسة؛ لأن ذرات المياه أقل تماسكا من ذرات اليابسة، وهذا بدوره يجعل حركة هذه المسطحات المائية تغير من وضعيتها مدا وجزرا في حالتي قرب القمر وبعده من الأرض، إذ من المعلوم أن

«أي نظام متوازن كنظام الأرض والقمر، فإن قوة الجذب بين الجسمين تتوازن تماما مع قوة الطرد المركزية ويكون هذا الاتزان محكما في مركزي الجسمين، إلا أن القوتين لا تكونان متساويتين على سطح الأرض، فعلى الجانب القريب من القمر تكون قوة الجذب باتجاهه أعظم، أما على الجانب المضاد فتكون القوة الطاردة المركزية العاملة في الاتجاه المضاد أعظم»[1].

بل إن هذا النظام الدقيق الذي يضبط وينظم حركة الأرض في الفضاء له ارتباط كذلك بتوزيع الكتل على الأرض وبقوة جذب القمر لها، وقد أظهرت أبحاث العلماء بأن قوة جذب القمر للأرض عند مدارها يجعل محورها يتمايل ببطء شديد، وهذه هي الحركة المسماة مبادرة الاعتداليين، وتشبه ترنح جسم يتحرك ساقطا على رأسه، ومقدار الترنح الذي ينتج عن هذا الجذب يعتمد على توزيع الكتلة في الأرض[2].

ومما لا شك فيه أن هذا الترنح والتمايل لمحور الأرض مع حركتي كل من الشمس والقمر يسبب لها حركات شديدة العنف، إلا أن وجود الجبال ذات الجذور الغائرة في الغلاف الصخري للأرض والتي تتعمق في الأرض بعشرة إلى خمسة عشر ضعف ارتفاعها فوق سطح الأرض، تقلل من عنف هذه الحركات، فتجعل الأرض مستقرة ومنتظمة في دورانها حول محورها، وحال الجبال في التقليل من ترنح الأرض

---

(1) روبرت ج. فوستر: الجيولوجيا العامة. ترجمة الأساتذة من قسم الجيولوجيا في الجامعة الأردنية، وهم: د. عبد القادر عابد، د. شاكر رسمي المقبل، د. سعد حسين الباشا، وأشرف على الترجمة وراجعها: د. عبد القادر عابد، مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٨٠م، (ص٣٣٨).

(2) المرجع نفسه. بتصرف، (ص٣٩٩، ٤٠٠).

وارتجاجها، كحال الرصاص الموضوع حول أطر عجلات السيارات للتقليل من ارتجاج هذه الأطر عند دورانها تحت السيارات[1].

وبهذا يتضح التوازن الحركي للأرض سواء من خلال قوى التجاذب بين الأرض والشمس، أو بين الأرض والقمر، أو في توزيع الكتل الصخرية في الأرض وعلاقة ذلك بضبط حركتها في الفضاء.

ثانيا: توازن القشرة الأرضية:

لقد أشار القرآن الكريم إلى التوازن الحاصل في قشرة الأرض بعدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾[3]، وقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[4].

و«الرواسي: الجبال، واللفظ مشتق من رسا: إذا ثبت.

وأن تميد: في موضع مفعول من أجله، والمعنى: أنه ألقى الجبال في الأرض لئلا تميد الأرض...»[5].

فبينت الآيات أن الجبال عبارة عن مراس مثبتة لقشرة الأرض فوق الصهير المائع الذي يقع تحتها، كالمراسي التي تثبت السفن على ظهر البحر فتمنعها من الحركة.

ولقد جاءت الدراسات الحديثة لتبين أن الجبال والكتل القارية تحافظ على توازنها بإبقاء التعادل قائما بين كثافة الجذور الممتدة في باطن الأرض، وبين ارتفاعاتها المشرفة فوق سطح الأرض، «فتبقى في حالة توازن، فإذا فقدت هذه الكتل شيئا من ارتفاعها الظاهر فوق سطح الأرض، فإنها تفقد بالمقابل ما يتناسب مع ما فقدته من أعاليها لتبقى محافظة على التوازن، وبالمقابل-أيضا- فإذا زادت الترسبات في قاع

---

(1) د. زغلول النجار: الإعجاز العلمي في السنة النبوية. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٤، مارس ٢٠٠٣م، بتصرف، (ج١، ص٣٧، ٣٨).

(2) سورة النحل، الآية ١٥.

(3) سورة الأنبياء، الآية ٣١.

(4) سورة لقمان، الآية ١٠.

(5) الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل. (ج٢، ص١٥١)، وانظر: الزمخشري: الكشاف. (ج٢، ص٥٥٩)، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن. مراجع سابقة، (ج١٠، ص٩٠).

المحيط، فإنه بالمقابل يزداد كثافة ما تحتها ليتناسب مع الحمل الزائد في الأعلى، فيبقى التوازن هو السائد»[1].

بل يلاحظ التوازن حتى في الفراغ الذي تشغله الجذور الممتدة في طبقة السيما السائلة، فإن تأثير ذلك واضح في بقاء كتل القارات والجبال في أماكنها فوق سطح الأرض، ذلك لأنه؛ «بامتداد وتعمق هذه الجذور في ما يسمى بطبقة السيما البازلتية الثقيلة – التي تطفو عليها كتل القارات – فإنها بهذا التعمق صارت تشغل فراغا لولاه لشغلته المواد البازلتية، ولأصبحت الجبال والقارات مواد زائدة عن حاجة الأرض، ولكانت عرضة لأن تتطاير مع دوران الكرة الأرضية»[2].

ومع هذا الدور الذي تقوم به الجبال في الحفاظ على التوازن في قشرة الأرض حتى لا تميد وتضطرب، فهناك توازن آخر في قشرة الأرض ككل، فالقشرة القارية المرتفعة لابد أن تكون متوازنة مع قيعان المحيطات الممتدة، «فلو أخذنا قطاعين متجاورين في الغلاف الصخري، يمثل أحدهما منطقة قارية عليها هضبة مرتفعة، ويمثل الآخر سهلا ممتدا إلى مسافة كبيرة من قاع المحيط، فالمفروض مبدئيا أن هاتين القطعتين من الغلاف الصخري– القطعة القارية والقطعة المحيطية – لابد أن يكون لهما نفس الوزن حتى يمكن أن يكونا في حالة توازن يسمى التوازن الأيزوستاتيكي، ويشبه هذا التوازن إلى حد ما توازن جسم طاف على سطح الماء»[3].

وهذا هو ما يفسر التفاوت في السمك والكثافة بين القشرة المحيطية والقشرة القارية، «فالقشرة المحيطية أقل سماكة (حوالي ٥كم)، وأكبر كثافة (٢٠٩غم/سم^{3}) ... أما القشرة القارية فهي أكبر سماكة (٣٠–٤٠ كم)، وأقل كثافة (٢٠٧غم/سم^{3})»[4].

---

(١) أ.د. محمد صفي الدين أبو العز: قشرة الأرض. دراسة جيومورفولوجية. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م، (ص٣٨)، وانظر: د. فتحي عبد العزيز أبو راضي: جغرافية التضاريس. دار المعرفة الجامعية، مصر، ٢٠٠٢م، (ص١٣).

(٢) المرجع نفسه. (ص٣٨)، وانظر: د. شاهر جمال آغا: الزلازل حقيقتها وآثارها. سلسلة كتب عالم المعرفة، العدد ٢٠٠، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس ١٩٩٥م، (ص٢٠).

(٣) د. محمد إبراهيم فارس، وغيره. قواعد الجيولوجيا العامة. مرجع سابق، (ص٢٤٨، ٢٤٩).

(٤) أ.د. حكم عبد الجبار صوالحة: الجيولوجيا العامة. دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان– الأردن، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، (ص٤٤).

ومن الجدير بالذكر أن لعوامل النحت والتعرية دور كبير في الإخلال بالتوازن القائم، فهي تتسبب في إزالة الكثير من حطام هذه المرتفعات، وفي الوقت نفسه تتعرض بقاع أخرى منخفضة لعلمية ترسيب لذلك الحطام المزال، ومع مرور الزمن يزداد النحت ويزداد في المقابل الترسيب، ويحدث نتيجة لهذا وذاك أن تخف البقاع التي تعرضت للنحت والتعرية فترتفع، وفي المقابل تهبط البقاع التي تعرضت للترسيب بسبب الحمل الثقيل للرواسب.

وبما أن مادة السيما الحاملة للقشرة الأرضية شبه سائلة، فإنها نتيجة لضغط البقاع الهابطة عليها تقوم بالانسياب باتجاه البقاع التي أزيلت منها الرواسب، فتعادلها بقدر ما أزيل من أعلاها، فعند ذلك يتعادل الضغط ويعود التوازن إلى البقعتين مرة أخرى.

وخير مثال للاستدلال على وجود حالة التوازن هذه، هو ما يوجد في المناطق الجليدية على القارات، وحول البراكين، وكذلك عند أخذ قياسات عن الجاذبية الأرضية قرب السلاسل الجبلية، فقد كانت مساحات واسعة من الكرة الأرضية مغطاة بطبقات جليدية سميكة إبان العصر الجليدي الحديث، وبعد ذوبانها بدأت
الأرض بالارتفاع بعد أن كانت مضغوطة بفعل وزن الجليد[1].

بل عند التأمل يتبين التوازن والتقدير الدقيق لسمك القشرة الأرضية، فهي مقدرة بالقدر الكافي الذي يمنع طغيان ما تحتها على ما فوقها، فمن المعلوم أن مادة السيما تلي القشرة الأرضية وهي مادة منصهرة بسبب شدة الضغط وشدة الحرارة، وهي – أيضا– في حالة مور واضطراب دائمين، كما قال سبحانه: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾[2]، وهذا يجعلها تندفع بقوة باتجاه السطح، إلا أن ذلك لم يحدث بسبب السمك المناسب لقشرة الأرض.

فلو كانت هذه القشرة أقل سمكا مما هي عليه، فإن شدتي الضغط والحرارة كفيلان بتكسير القشرة الأرضية بأجمعها وتغطية سطحها كاملا بالصهير الذي سينفذ من باطنها، ولو أن سمكها كان أكبر مما هو عليه فإن شدتي الحرارة والضغط الدائمين

---

(1) أنظر: روبرت ج. فوستر: الجيولوجيا العامة. مرجع سابق، (ص٤٤٤)، د. صلاح الدين بجيري: مبادئ الجغرافيا الطبيعية. دار الفكر، دمشق، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، (ص٤٥– ٤٦).

(2) سورة الملك، الآية ١٦.

والمتراكمين في باطنها سيشكلان مع مرور الزمن خطرا كبيرا جدا على الكرة الأرضية بأجمعها، فيجعلانها عرضة لانفجار هائل يودي بها إلى الأبد.

لقد جعل الله تعالى للقشرة الأرضية مناطق ضعف لتكون منافذ تتخلص من خلالها الأرض من خطري الضغط والحرارة الزائدين عن طريق البراكين التي تقذف بالحمم والصهير والغازات، وهذا هو الذي حفظها من الخطرين جميعا، فالبراكين بالنسبة للأرض هي أشبه ما تكون بالزفرات التي يطلقها الشخص من صدره عند غيضه وحنقه، فيسكن عند ذلك غضبه ويستعيد توازنه.

ويظهر التوازن كذلك في التناسب بين سمك القشرة الأرضية ونسبة الأكسجين الممتص فيها، «فإن الأكسجين هو أكثر العناصر توافرا في قشرة الأرض إذ تبلغ نسبته ٥٠% تقريبا»[١].

إن هذه النسبة مقدرة بشكل دقيق للغاية، بحيث لو زاد سمك القشرة عما هي عليه لزاد في المقابل امتصاصها للأكسجين من الغلاف الحيوي، الأمر الذي سيخل بالتوازن العام على وجه الأرض، بل إن الزيادة في سمك هذه القشرة سيزيد من شدة الجاذبية[٢]، وهذا بدوره سيجعل حركة الأحياء على وجه الأرض شديدة الصعوبة. إن تقدير التوازن الذي يجب أن تكون عليه الأرض، هو ما هي عليه من غير زيادة ولا نقصان.

ثالثا: التوازن الكروي لقشرة الأرض:

لقد أشار القرآن الكريم إلى كروية الأرض، بقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[٣]، وقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾[٤].

---

(١) وليام سي. فيرجارا: العلم في دنيانا. ترجمة: سيد رمضان هدارة، زكريا فهمي، دار النهضة العربية، القاهرة، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك، أغسطس ١٩٧٥م، (ص٢٦).

(٢) أنظر: أ. كرسي موريسون: العلم يدعو للإيمان. ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي، تصدير سماحة الشيخ أحمد حسن الباقوري، تقديم د. أحمد زكي، دار القلم، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٦م، (ص٦٥).

(٣) سورة النور، الآية ٤٤.

(٤) سورة الزمر، الآية ٥.

قال الشنقيطي: «والتَّكوير: هو التدوير، ومنه قيل: كار العمامة وكورها، ولهذا يقال للأفلاك: كروية الشكل؛ لأن أصل الكرة: كورة، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً»[1].

وقال النسفي: «والتكوير: اللف واللي، يقال: كار العمامة على رأسه وكورها، والمعنى: أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه، فشبه فى تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار، وأن هذا يكر على هذا كرورا متتابعا، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض»[2].

ومن المعلوم أن الليل والنهار يدوران على الأرض، ويقتضي تدويرهما ولفهما على الأرض أن تكون الأرض مكورة كذلك حتى يتحقق التدوير واللف.

وقد أصبحت كروية الأرض في هذا الزمان من العلوم المسلَّمة، وهذا هو ما أشارت إليه الآيتان السابقتان بوضوح كامل.

والتوازن الحاصل في كروية الأرض هو في محافظتها على شكلها المستدير من دون أن تأخذ شكلا آخر غيره، ويرجع السبب في ذلك إلى أن «جاذبية الأرض تميل إلى جذب أي بروز على السطح نحو الداخل حتى تحتفظ بشكل الأرض كرويا تماما. أما دورانها فيعمل على تمدد الكرة عند خط استوائها بوساطة القوة الطاردة المركزية، وبالتالي على تقصير المحور القطبي محولا شكل الكرة إلى ما نسميه شبه كرة مفلطحة، ولكن قوة الطرد أضعف بكثير من قوة الجاذبية، وهي تسبب انتفاخا طفيفا للحزام الاستوائي، وتسطيحا بسيطا عند القطبين»[3].

أضف إلى ذلك أن الضغوط الشديدة التي تتعرض لها أجزاء القشرة تؤثر في قوة الصخور، وتجعلها تتشكل بتوازن مع بعضها البعض بين هذه الضغوط التي تتحكم في قشرة الأرض، فلا تسمح لأجزاء القشرة التي تتعرض للالتواء أو الانكسار أن ترتفع

---

(1) الشنقيطي: أضواء البيان. مرجع سابق، (ج٨، ص٤٢٦).

(2) النسفي: تفسير النسفي. (ج٤، ص٤٧)، وانظر: البيضاوي: تفسير البيضاوي. (ج٥، ص٥٨)، وأبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق، (ج٧، ص٢٤٢).

(3) جوزيف هارولد رسن: فجر الحياة. ترجمة د. عبد الحليم منتصر، د. محمد مصطفى حسن، د. عبد القادر فطين، مراجعة عبد الحليم منتصر، دار إحياء الكتب العربية، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك، ط١، أكتوبر ١٩٦٠م، (ص٨١).

ارتفاعا مطلقا غير مقيد، أو تهبط هبوطا غير محدود، بل تحافظ على بقاء الأرض كروية الشكل دائما[1].

وبهذا تحافظ الأرض على كرويتها بتوازن كامل من دون أن تتأثر بالحركات الشديدة، والتي لولا التقدير الإلهي الدقيق لعمليتي الجذب والطرد في الكرة الأرضية، وكذا الضغوط الشديدة التي تضبط الشكل الكروي في القشرة لتغيَّر شكل الأرض كاملا إلى شكل آخر غير الكروي المعتاد.

رابعا: التوازن الكيميائي والفيزيائي لعناصر القشرة الأرضية:

إن التوازن هو الصفة السائدة في كل شيء خلقه الله تعالى، ولذلك فعند النظر والتأمل في المكونات الكيميائية للقشرة الأرضية يتضح النظام والتنسيق المتقن في بناء كل عنصر من عناصرها، حيث تتكون هذه العناصر من ذرات، وتتكون الذرات كما هو معروف من بروتونات ونيوترونات وإلكترونات، فالبروتون له شحنة موجبة، ويقابله الإلكترون ذات الشحنة السالبة، وأما النيوترونات فهي متعادلة ومحايدة بين الشحنتين، وعند النظر في بناء هذه الذرة يتضح أن البروتونات والنيوترونات تمثل نواة الذرة، و«تتركز معظم كتلة الذرة في نواتها الثقيلة التي تكون في الوسط، وتتحرك الإلكترونات في أفلاك دائرية حول النواة، تماما كما تدور الكواكب حول الشمس»[2].

إن هذا النظام الذي يضبط الحركات لهذه الجسيمات الصغيرة بهذه الدقة المحسوبة والمقدرة هو الذي جعل القشرة الأرضية في غاية الاتزان، ولذلك فعند النظر في مكونات قشرة الأرض يتضح أن عددا محدودا من هذه العناصر هو المكون لغالبيتها.

فعشرة عناصر فقط من أكثر من ١١٨عنصرا هي المكونة لأكثر من **٩٩%** من وزن القشرة الأرضية، وهي كالآتي: أكسجين **٤٦,٦٠**، وسيليكون **٢٧,٧٢**، وألمنيوم **٨,١٣**، وحديد **٥,٠٠**، وكالسيوم **٣,٦٣**، وصوديوم **٢,٨٣**، وبوتاسيوم **٢,٥٩**،

---

(١) د.محمد متولي: وجه الأرض. مكتبة الأنجلو المصرية، المكتبة الجغرافية الحديثة، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، بتصرف، (ص٣٩، ٤٠).

(٢) ج. بروفسكي: ارتقاء الإنسان. ترجمة د. موفق شخاشيرو، مراجعة: زهير الكرمي، سلسلة كتب عالم المعرفة، العدد ٣٩، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٠م، (ص٢٢١).

ومغنيسيوم **٢,٠٩**، وتيتانيوم **٠,٤٤**، وهيدروجين **٠,١٤**، وبالتالي فإن نسبة المجموع لهذه العناصر المكونة للقشرة الأرضية هي **٩٩,١٧** تقريبا[١].

إن التوازن العجيب في ذرات جميع العناصر أن عدد الإلكترونات السالبة تكون بعدد البروتونات الموجبة، فإذا كان في النواة بروتون واحد كان في مدار الذرة إلكترون واحد كما في ذرة الهيدروجين، وإذا كان في النواة بروتونان كان في المدار إلكترونان وهكذا. أما النيوترونات فهي محايدة فعددها في نواة الذرة قل أو كثر لا يتعادل مع عدد الإلكترونات.

إن القانون الفيزيائي الذي يضبط حركة النجوم والكواكب وأبعادها وسرعاتها، يضبط في الوقت نفسه حركات هذه الجسيمات الصغيرة، فالتعادل الدقيق، والتجاذب الكهربائي المتبادل بين الشحنات الموجبة للبروتونات والشحنات السالبة للإلكترونات، جعل كل عنصر من العناصر يحتفظ بصفاته المميزة له من دون أي تغيير في ذلك.

وأعجب من هذا هو ذلك القانون الدوري الذي يتحكم في ترتيب الإلكترونات في مدار الذرة، بل مداراتها، ويتحكم بالتالي في تأليف العناصر المختلفة وتركيبها تبعاً لترتيب الإلكترونات وعددها، فإذا كان للعنصر **٩** إلكترونات اتخذ **التاسع** مركزاً له في مدار ثان من غلاف الذرة، وأعجب من هذا أن اتحاد العناصر ببعضها يتمشى على أساس هذا الترتيب **الثماني** في السطح، ذلك أن اتحاد العناصر إنما يحصل بين إلكتروناتها، فإذا كان عدد إلكترونات العنصر المضيف في سطح الغلاف أقل من ثمانية، فإنه يستطيع أن يستقبل عنصراً آخراً، فالعنصر الذي في طبقته الخارجية ثمانية إلكترونات لا يستطيع أن يستقبل أحدا، أما الذي في طبقته الخارجية سبعة كهارب فإنه يستطيع الاتحاد بعنصر آخر في طبقته إلكترون واحد، والذي في طبقته الخارجية ستة الكترونات يتحد مع الذي في طبقته إلكترونان، وهكذا[٢].

ويمكن ملاحظة التوازن الكيميائي والفيزيائي أيضا في التكوين المعدني للقشرة الأرضية، فهذه المواد الصلبة والمتبلورة محددة التركيب والتنظيم، و«تعكس الصفات

---

(١) أ.د. حكم عبد الجبار صوالحة: الجيولوجيا العامة. بتصرف، مرجع سابق، (ص٤٦).

(٢) أنظر: الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان. موسوعة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، شبكة الإنترنت، www.ald 3wa. org

الفيزيائية بشكل عام التركيب الداخلي المنتظم والمتكرر للبلورات، كما تعكس التكوين الكيميائي المحدد الذي قد يتغير ولكن ضمن حدود ثابتة. يمكن أن تحل ذرات عناصر مختلفة ذات أحجام متقاربة مكان بعضها البعض في البناء البلوري دون تغيير الترتيب الداخلي للذرات أو الشكل الخارجي للبلورات.

هذا ما نسميه تساوي الشكل أو تشاكل ... »[1].

وبهذا يكون قد وضح شيئا من التوازن الكيميائي والفيزيائي البديع الذي تضمنته القشرة الأرضية، ومدى حساسية الصنع والإتقان في بنائها، وصدق الله القائل:﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[2].

المبحث الرابع
التوازن البيئي

لقد خلق الله تعالى الأرض لتكون بيئة صالحة تستقر على ظهرها الأحياء، قال تعالى:﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾[3]، ويرجع صلاح الأرض للحياة إلى ما قدره الله فيها من الأنظمة المتوازنة والمتكاملة التي جعلت حياة الكائنات الحية ممكنة على ظهرها، بحيث لو اختل نظام التوازن في هذه الأنظمة لاستحالت حياة جميع الكائنات ولم تعد الأرض بعد ذلك بيئة صالحة للحياة، وسيورد الباحث في بيان هذا المبحث بعضا من هذه التوازنات القائمة في عناصر البيئة، وذلك على النحو الآتي:

أولا: الماء:

---

(1) أ.د. حكم عبد الجبار صوالحة: الجيولوجيا العامة. مرجع سابق، (ص٥١، ٥٢).

(2) سورة النمل، الآية ٨٨.

(3) سورة الرحمن، الآية ١٠.

الماء أحد عناصر البيئة ومكوناتها، وتستحيل حياة أي كائن حي بدونه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1]، وقد خلقه الله تعالى بتقدير دقيق على وجه الأرض، فمن المعلوم أنه يشغل ثلاثة أرباع الكرة الأرضية تقريبا، و«لقد حدد الماء مناخ الأرض، ولولاه لبردت ولاختفت الحياة من عليها. والسعة الحرارية للماء هائلة، فعندما يسخن يمتص كميات كبيرة جدا من الحرارة، ولكنه يعطي هذه الحرارة ثانية عندما يبرد. إن المحيطات والبحار والأنهار، وكل ما هو مختزن من الماء على سطح الأرض، وكذلك بخار الماء بالهواء تقوم بتجميع وتنظيم الحرارة»[2].

ويظهر التوازن جليا على وجه الأرض من خلال الدورة المائية التي من خلالها يتم تنقية الماء وتطهيره وتصريفه بما ينفع الناس سواء بتلطيف الجو من شدة الحرارة بتوفير القدر المناسب من الرطوبة في الجو أو في التربة التي بها يقوم بناء الحياة للكائنات عموما، وبخزن نسبة أخرى منه لتخرج بعد ذلك عيونا وينابيعاً لتأمين الحياة على وجه الأرض، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التقدير العظيم للماء بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾[3].

وإضافة إلى ما سبق فإن الماء له دور فعال في الحفاظ على التوازن الحيوي على سطح كوكب الأرض، فهذه «المحيطات تعد بمثابة مخازن كيميائية ضخمة لغاز ثاني أكسيد الكربون»[4]، ومن المعلوم أن هذا الغاز يتغذى عليه النبات وينتج منه ما يكفي لتغذية الإنسان والحيوان باستمرار على وجه هذه الأرض.

ومن التوازن البديع الذي يمتاز به الماء عن غيره من السوائل ليكون هو المادة المتنقلة في مسالك ومسام الأحياء على العموم هي لزوجته المثالية التي تمكنه من

---

(1) سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

(2) بوريس فيدوروفيتش سيرجيف: وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء. ترجمة: د. عبد الرحمن محمد البردي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، (ص٧).

(3) سورة الفرقان، الآية ٤٨- ٥٠.

(4) هارون يحيى: العظمة في كل مكان. مؤسسة الرسالة ناشرون للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، (ص٢٤).

النفاذ بسهولة ويسر في هذه المسالك الصغيرة جدا للكائنات الحية، فالتركيب الذي عليه الماء هو المناسب تماما لاستمرار الحياة.

ويمكن إيضاح التوازن الذي عليه لزوجة الماء بالافتراض أن لزوجته صارت أكبر مما هي عليه، فإن نفاذه في الأنسجة الدقيقة للكائنات الحية ومسام التربة سيكون شديد الصعوبة، كالحال في شفط العسل بإبرة، فهذه الصورة لا تحتملها التركيبة البنائية للكائنات الحية، ولا تتلاءم مع التصريف القائم للمياه على سطح الأرض وباطنها كذلك. ولو أن اللزوجة أصبحت أقل مما هي عليه لصار الماء بخارا معلقا في جو الأرض بعيدا عن متناول الكائنات الحية بلا استثناء.

«وإذا كانت لزوجة الماء أقل من ذلك –أيضاً– فالتركيبات اللطيفة (الرقيقة) سوف تتمزق بسهولة، وعندئذ لن يكون الماء قادراً على دعم أي تركيبات مجهرية معقدة دائمة»[1].

ومما تجدر الإشارة إليه أن للماء خاصية كبيرة في الحفاظ على حياة الكائنات الحية، فجميع السوائل يتناقص حجمها وتزداد كثافتها عندما تبرد، فتصبح أثقل مما كانت عليه قبل أن تبرد، لكن توجد حالة واحدة لا ينطبق عليها هذا القانون وهي حالة الماء، فهو يسلك سبيلا آخر عند ما يتعرض للتجمد.

فقد وجد أن الماء ينكمش وتزداد كثافته مع انخفاض درجة الحرارة إلى **٣,٩٨°م**، ومع انخفاض درجة الحرارة عن **٤°م** تبدأ الكثافة في الانخفاض مرة أخرى، أي أن الماء يصبح أكثر كثافة عند **٤°م**، وهذه الخاصية لها أهميتها في حياة الكائنات المائية، فعند وصول الماء إلى درجة التجمد **(صفر)** يتمدد الماء وتقل كثافته، فيطفوا الثلج على أسطح البحيرات والجداول وغيرها، ويظل الماء تحت طبقة الثلج في حالة سائلة، وهذه الظاهرة تحمي الكائنات الحية من التجمد المفاجئ[2].

إن هذا التقدير البديع الذي جعل من المياه في حال تجمدها أنها تطفوا على سطوح هذه المسطحات المائية، فتصبح غطاء محكما تحفظ ما تحتها من مياه سائلة،

---

(١) فراس نور الحق: الماء والحياة. موسوعة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، مرجع سابق، نقلا عن: MICHAEL DENTON,NATURE,S DESTINY P.35

(٢) أ.د. علي علي المرسي، د. محمد محمد الشاذلي: علم البيئة العام والتنوع البيولوجي. سلسلة الفكر العربي لمراجع العلوم الأساسية، العدد١١، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، بتصرف، (ص١٣٢).

فتمنع بذلك نفاذ البرودة المجمدة إلى الأعماق، وتمنع بالمقابل الحرارة المختزنة في هذه المياه من النفاذ إلى الخارج، فَتَوفَّر بهذا التقدير الحكيم البيئة الصالحة التي مكَّنت الأحياء الموجودة في هذه المناطق الباردة من الحياة في هذه الظروف القاسية.

ومن التوازن الرباني لعنصر المياه أنها تأخذ اللون الأبيض عند تجمدها، وهذا له تقدير محكم، فهذا اللون يعكس أشعة الشمس ويقلل من ذوبان الثلوج، وهذا بدوره حافظ على سلامة أجزاء كبيرة من الكرة الأرضية من أن تغمرها المياه، فلو كان هذا اللون ممتصا للحرارة كاللون الأسود لذابت الثلوج التي تغطي قطبي الكرة الأرضية، ولتسبب هذا في ارتفاع منسوب مياه البحار وتغطية جميع الجزر والمناطق الساحلية التي تمثل مأوى لأكثر سكان الأرض.

ومما ساعد على عدم الذوبان –أيضا– ميلان محور الأرض، فمن المعلوم «أن محور الأرض ليس عموديا على مدارها حول الشمس، فهو يميل بزاوية٢٣,٥°»[١].

ولا شك أن هذا الميلان له «دواع دعت إليه، فلو أن الكرة الأرضية لم تكن مائلة لكان القطبان في حالة غسق دائم، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالا وجنوبا مكدسا في طريقه قارات من الجليد، وربما ترك صحراء بين خط الاستواء والثلج ، وفي هذه الحالة كانت تنبعث انهارا من الجليد، وتتدفق من خلال أودية إلى قاع المحيط المغطى بالملح لتتكون بركا مؤقتة من الملح الأجاج (ملاحات)، وكان ثقل الكتلة الهائلة من الجليد يضغط على القطبين، فيؤدي ذلك إلى فرطحة خط الاستواء أو فورانه»[٢].

إن ميلان محور الأرض جعل أشعة الشمس تقطع مسافة أطول، الأمر الذي أضعف من قوتها وشتت من شعاعها قبل وصوله إلى الجليد في القطبين، فتبين بهذا دقة التوازن والتقدير القائم بين ميلان محور الأرض ولون الثلج، وكيف صرف الله تعالى به عواقب وخيمة كانت ستجعل من الأرض كوكبا غير صالح للحياة.

ثانيا: الغلاف الغازي:

---

(١) د. محمد عبد القادر محرم، د. سميرة محمد ربيع: الطبيعة والتكنولوجيا وصحة الإنسان. دار النشر للجامعات، مصر، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، (ص٦٨).

(٢) أ. كرسي موريسون: العلم يدعو للإيمان. مرجع سابق، (ص٥٦– ٥٧).

لقد خلق الله تعالى الغلاف الغازي المحيط بالأرض بتقدير موزون يتناسب مع بقاء الحياة على وجه الأرض، وقد تمكن العلماء من تمييز ثلاث طبقات لهذا الغلاف، وقد أطلقوا عليها التروبوسفير، والستراتوسفير، والأيونوسفير.

«ويقصد **بالتروبوسفير**: الطبقة السفلية من الغلاف الغازي التي تمتد من سطح الأرض حتى ارتفاع يتراوح بين ٨ و**١٥** كيلومترا...، وفي هذه الطبقة تقل درجة الحرارة كلما ارتفعنا بمعدل درجة واحدة مئوية لكل **١٥٠** مترا...، وتبدأ طبقة **الستراتوسفير** من خط يسمى **التربويوز** حتى ارتفاع يتراوح بين **٥٥** و **٨٠** كيلو متر، وتتميز تلك الطبقة بثبات حرارتها وخلوها من العواصف...،- وتتوسطها ما تسمى- بطبقة **الأوزون**، وهي طبقة ساخنة تصل درجة حرارتها إلى **٩٥°**م...، وتبدأ طبقة **الأيونوسفير** من ارتفاع **٣٦٠** كيلو متر أو أكثر، وتتميز تلك الطبقة بخفة غازاتها»[١].

فهذا الغلاف بطبقاته مقدر بحيث يدفع الأخطار القادمة من الفضاء عن الأرض، فيمنعها من النفاذ إلى المحيط الحيوي الذي تقطنه الأحياء، والتي بدورها ستكون عرضة لهذه الأخطار المهلكة، وهو مقدر كذلك بما يتناسب مع حاجة الكائنات الحية، بحيث لو اختل هذا التقدير لما أمكن وجود كائن حي على وجه الأرض مطلقا، ولذلك فمن التوازن الذي يحققه الغلاف الغازي في الحفاظ على البيئة أنه «ينظم... وصول الإشعاع الشمسي إلى سطح الأرض، ويعرقل نفاذ الإشعاع الأرضي بكامله إلى الفضاء...، ولولا وجود الغلاف الجوي لارتفعت حرارة النهار إلى ما فوق **١٠٠°م**، ولهبطت أثناء الليل إلى ما دون الصفر بنفس القدر(أكثر من **١٠٠°م** تحت الصفر)، ولأصبح المدى الحراري اليومي أكثر من **٢٠٠°م**، ولاستحالت الحياة على سطح

---

(١) محمد سري إبراهيم دعبس: المحميات الطبيعية والتوازن البيئي. سلسلة التنمية والبيئة، العدد١٠، البيطاش سنتر للنشر والتوزيع، الإسكندرية – مصر، (ص٣٢)، نقلا عن يوسف عبد المجيد قائد: الغلاف الجوي. دار المعارف، ١٩٧٧م، (ص٤-٦)، وانظر: أحمد شفيق الخطيب، ويوسف سليمان خير الله: الموسوعة العلمية الشاملة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٨م، (ص٢٤٨)، د. أحمد محمد بشادي، د. إبراهيم العوضي عبد العزيز: أسس علم الجيوكيمياء. دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، (ص١٩- ٢٠).

الأرض. ولكن مع وجود الغلاف الجوي... صار المعدل الحراري اليومي للجو الملامس لسطح الأرض نحو **١٥°م**، وهو مقدار مناسب لحياة الكائنات»[١].

بل إن هناك علاقة وطيدة تماما في التوازن الحراري القائم في البيئة الأرضية، والسمك المقدر والدقيق لطبقة الأوزون التي تتوسط طبقة الستراتوسفير في الغلاف الغازي المحيط بالأرض، فسمك هذه الطبقة يتناسب تماما مع حاجة الأحياء على سطح الأرض من دون زيادة أو نقصان، ذلك لأنه «لو كانت طبقة الأوزون أكثر سمكا مما هي عليه لانخفضت حرارة سطح الأرض انخفاضا كبيرا، ولو كانت أقل مما هي عليه لارتفعت حرارة سطح الأرض ارتفاعا كبيرا ولانعدمت المقاومة نهائيا تجاه الأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس»[٢].

كما أن للغلاف الغازي مهمة أخرى تتمثل في حماية ما على سطح الأرض من كائنات حية من الإشعاعات التي ترسلها الشمس، والتي تكون قاتلة للأحياء في حال نفاذها من هذا الغلاف ووصولها إلى الأحياء، ولذلك يقوم«الغلاف الجوي... بامتصاص هذه الإشعاعات، خصوصا تلك ذات الموجات القصيرة القاتلة»[٣].

وأيضا فللغلاف الغازي دور فعال في حماية الأرض من الشهب المتجهة نحوها، وهذا الدور لا يعرف إلا عند معرفة السرعة لهذه الشهب، فنحن على سطح الأرض لا نشعر بقوة دفع الهواء لأجسامنا إذا كنا نسير بالصورة المعتادة من المشي، لكن تظهر قوة دفع الهواء لأجسامنا إذا كنا نركب سيارة مسرعة ونحن نقف على ظهرها معرضين أجسامنا لتيار الهواء مباشرة من دون ساتر، ففي هذه الحالة نشعر بقوة دفع الهواء تصدم أجسامنا، وكلما زادت السرعة زاد الدفع وشعرنا بقوة هذا الستار الشفاف، وحينها لا نستطيع أن نصمد أمامه، فكيف الحال لو تخيلنا أننا نواجه الهواء بسرعة الشهب ؟ إذاً لتمزقت أجسادنا إربا ولصارت فتاتا.

---

(١) د.جودة حسين جودة: الجغرافيا المناخية والنباتية. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م، (ص٥٢، ٥٣).

(٢) هارون يحيى: سلسلة المعجزات. مرجع سابق، (ص٦٠).

(٣) محمد سري إبراهيم دعبس: المحميات الطبيعية والتوازن البيئي. مرجع سابق، (ص٣٤).

وهذا هو الحال مع الشهب عندما تخترق الغلاف الغازي بسرعة هائلة، فإنها تتفتت وتصير غبارا في وقت قصير جدا، وينتهي خطرها على الأرض باصطدامها به.

ولهذا فهو يقوم بالتقاط جميع الشهب الآتية من الفضاء الخارجي والتي تندفع نحو سطح الأرض تحت تأثير قوتها الجاذبة، والتي تقدر بما يقرب من **مائة مليون** من الشهب يوميا، حيث تُمتص من قبل هذا الغلاف، وتتبخر بمجرد احتكاكها بالهواء وأكسدتها بأكسجين الجو[١].

ومما ينبغي التنويه إليه أن هذه الغازات المكونة للغلاف الجوي لها نسب ثابتة ومقدرة لا تتغير بحال من الأحوال زيادة ولا نقصانا، حيث «يمثل غاز النيتروجين ٧٨,٠٨٤% منها، وغاز الأوكسجين ٢٠,٩٤٦%، وغاز ثاني أكسيد الكربون ٠,٠٣٣%، إلى جانب ذلك توجد مجموعة أخرى من الغازات تدخل في تكوين الهواء بنسب متفاوتة»[٢].

وكل هذه الغازات وإن اختلفت في نسبها ومقاديرها قلة أو كثرة، فلكل واحد منها التقدير المناسب الذي يتلاءم ويتكامل مع بقية غازات الجو بحيث يؤدي دوره بتفاعل محدد لا يتجاوزه ولا ينقص عنه؛ ذلك لأن أدنى تغيير في نسب ومقادير هذه الغازات يسبب تبعات خطيرة جدا على البيئة، ومثالا على ذلك: «لو كانت كمية غاز ثاني أكسيد الكربون والماء في الغلاف الجوي أكبر مما هي عليه لازدادت حرارة الغلاف الجوي زيادة كبيرة، ولو كانت أقل مما هي عليه لانخفضت حرارة الغلاف الجوي انخفاضا كبيرا – وكذلك الحال أيضا – لو كانت كمية الأوكسجين في الغلاف الجوي أكبر مما هي عليه لاحترقت النباتات والمواد الهيدروكربونية بسهولة كبيرة جدا، ولو كانت أقل مما هي عليه لانعدمت قدرة الأحياء على التنفس...، – و– لو كانت نسبة الأوكسجين والنيتروجين في الغلاف الجوي أكثر مما هي عليه لازدادت سرعة الفعاليات الحياتية بصورة تسبب لها ضررا بالغا، ولو كانت أقل مما هي عليه لأبطأت هذه الفعاليات الحياتية بصورة تسبب لها ضررا بالغا أيضا»[٣].

---

(١) أنظر: المرجع نفسه. بتصرف يسير، (ص٣٤).

(٢) رشيد الحمد، محمد سعيد صباريني: البيئة ومشكلاتها. مرجع سابق، (ص٤١).

(٣) هارون يحيى: سلسلة المعجزات. مرجع سابق، (ص٦٠).

إن هذه التقديرات التي عليها الغازات حساسة للغاية، فعند النظر والتأمل في الدورة الغازية التي تحدث في البيئة، يتبين التوازن المحسوب في ثبات نسب الغازات في جو الأرض من دون زيادة ولا نقصان، ولنأخذ مثلا على ذلك غازي الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون. فالأوكسجين تتنسمه كافة الحيوانات ومنها الإنسان، وتطرد في زفيرها ثاني أكسيد الكربون، ولو بقي الحال على هذا لنفد الأوكسجين من الأرض منذ زمن بعيد، لكن الله تعالى قدر توازنا بديعا لتعويض هذا الفاقد بأن جعل النبات يأخذ ثاني أكسيد الكربون ويخرج الأكسجين لتعويض ما يستنفده الإنسان والحيوان، وبذلك تبقى النسبة في الجو ثابتة لكل من الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون وفق التقدير المحدد لهما، وصدق الله القائل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[1]، فالتقدير وحده هو الذي تقوم به الحياة، وتنضبط به مفردات البيئة.

ثالثا: التربة:

والتربة لها دور فعال في التوازن البيئي الذي قدره الخالق سبحانه، وعلى الخصوص تلك التربة القابلة للإنبات والتي أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[3]، فهي مقدرة لتستجيب لعملية الإنبات التي تحتاجها الكائنات الحية، والتي هي أساس بقائها على قيد الحياة، ولذلك عبر القرآن عن هذه الاستجابة بقوله: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾، وقد جاء في الحديث تقديم هذه التربة على غيرها لما تقوم به من دور عظيم في التوازن البيئي على الأرض، وذلك بضربه -ﷺ- بها المثل لمن يقبل ويأخذ ما جاء به من الهدى والعلم، كما في قوله-ﷺ-: "مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ بِهِ من الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ منها نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ..." [4].

---

(1) سورة الفرقان، الآية ٢.

(2) سورة الحج، الآية ٥.

(3) سورة فصلت، الآية ٣٩.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي مُوسَى. مرجع سابق، (ج١، ص٤٢، حديث رقم: ٧٩).

فهذه التربة التي جعلها الله قابلة للإنبات هي مكونة من: مواد معدنية وعضوية صلبة، ومحلول التربة الذائب في الماء، والهواء المتخلل لحبيبات التربة ومساماتها. وهذه الحبيبات تتكون من صفائح معدنية متراصة بعضها فوق بعض ملتصقة في حال سكونها (هامدة)، وتحمل على سطحها شحنات كهربائية سالبة، فإذا نزل عليها المطر نشأت فيها حركة آلية (اهتزت)[1]، بسبب حركة جزيئات الماء، حيث يقوم الماء بطرد الهواء الموجود في الفراغات بين تلك الحبيبات، ولا يمكن أن
تسكن من الاهتزاز إلا بعد تعادل هذه الشحنات بأخرى[2].

فهذا التقدير الذي صممت به التربة راعى التوازن الدقيق بين لزوجة الماء وقابلية التربة لامتصاصه واختزانه، وبين طبيعة خلق النبات وأخذ حاجته منها وسهولة التجذر فيها، فلو كانت تربة الأرض كلها رملية لاختل التوازن البيئي على الأرض؛ لأن الرمل لا يمكن أن يحتفظ بالماء، وهو تربة فقيرة من حيث صلاحه للزراعة، وخير مثال على ذلك الصحاري القاحلة الموجودة على وجه الأرض.

ولو كانت التربة طينية خالية من الحبيبات الصخرية والمعادن لاحتفظت بكميات كبيرة من الماء على حساب الهواء، ولكانت حبيباتها متماسكة، ولتعذر على جذور النبات اختراق هذه الحبيبات، فكيف لو كانت التربة أشد تماسكا أو أقل تماسكا من الصورتين السابقتين ؟ إذاً لاستحال نمو أي نبات على أي منهما، ولما أمكن بعد ذلك أن تكون في الأرض حياة.

ولذا جعل الله تعالى التربة القابلة للإنبات مقدرة بالقدر الكافي الذي يمكّن الهواء والماء والمواد المتحللة من النفاذ في مسامها من دون طغيان أحدهما على الآخر، فيتيح ذلك لجذور النبات سهولة التجذر لأخذ ما يحتاجه النبات منها، ويتيح للكائنات الحية – ومنها ديدان الأرض – إمكان الحياة فيها والقيام بدورها في التخصيب.

---

(1) لم تشاهد ظاهرة اهتزاز حبيبات التربة إلا في عام ١٨٢٨م، وذلك علي يد مكتشفها روبرت براون. أنظر: د. أحمد محمد مجاهد، د. مصطفى عبد العزيز، د. أحمد الباز يونس، د. عبد الرحمن أمين: النبات العام. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٩٢م، (ص٧٣٠).

(2) الشيخ عبد المجيد بن عزيز الزنداني: بينات الرسول ومعجزاته. بمساعدة مجموعة الإيمان عبد الله الجودة وغيره، طباعة مركز البحوث بجامعة الإيمان، صنعاء، ط٣، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، بتصرف، (ص١٢٤– ١٢٧).

وحيث «تلعب (هذه) الكائنات الحية دورا هاما في تكوين التربة والحفاظ عليها وزيادة درجة خصوبتها...، فنجد أن أنواع البكتيريا المختلفة، وديدان الأرض التي قُدر تعدادها في الأرض الزراعية الخصبة بأكثر من **٢٥بليون** بكتيرة، و **٤٠٠,٠٠٠** فطرة، و **٥٠٠,٠٠٠** كائن طحلبي، و **٣٠,٠٠٠** من البروتوزوا، ولا تكمن الأهمية في هذا العدد الهائل. إنما المهم في الدور الذي تؤديه تلك الكائنات الدقيقة في تحويل النتروجين والفوسفور والكبريت إلى صور قابلة للامتصاص بواسطة النباتات»[١].

فهذا الدور الذي تقوم به هذه الكائنات في تخصيب الأراضي الزراعية عظيم جدا، ولذلك فمن أنفع هذه الكائنات في إفادة التربة وتأهيلها لتبقى صالحة للإنبات على الدوام هي ديدان الأرض، وقد حازت على هذه المنزلة عند أهل الاختصاص لأهمية ما تقوم به من أعمال جليلة في زيادة خصوبة التربة، فهي تؤهلها باستمرار لعملية الإنبات الهامة والتي بها يستقيم التوازن البيئي على وجه الأرض، «فهي حين تحفر الأرض تحدث ثقوبا – تفتح الطريق– أمام جذور النبات وقطرات الماء، وتساعد على تهوية التربة. وهي تسحق التربة داخل حويصلاتها الشبيهة بالطاحونة، فتنتج سطوحا جديدة تحدث عليها عملية الإذابة وغيرها، وهي تغطي سطح التربة بنفاياتها، وتدفن أوراق الشجر، وتساعد هذه الأوراق عند تحللها على إنتاج عفن نباتي»[٢].

وتمثل حبيبات التربة بمختلف أنواعها تقديرا ربانيا بديعا، فمع كونها تسمح بنفاذ الهواء والماء إلى جوف التربة، فهي في الوقت ذاته تمثل حاجزا يحبس المواد المتحللة والطمي وبقية الشوائب المحمولة في الماء فتبقيها في التربة فتزيد من خصوبتها، وتصبح المياه التي تخلصت من هذه الشوائب مياها نقية صالحة لشرب الإنسان والحيوان، وقد ضرب الله تعالى مثلا يتبين من خلاله انتفاع التربة بما يحمله السيل من مواد نافعة مخصبة للتربة تمكث فيها بفعل حبيبات التربة التي تمنعها من النفاذ مع الماء الخارج

---

(١) محمد سري إبراهيم دعبس: المحميات الطبيعية والتوازن البيئي (مرجع سابق)، ص٦٦.

(٢) ج. آرثر تومسون: مشكلات تحير العلماء. ترجمة: زكريا فهمي، راجعه: د. أنور عبد العليم، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، بمعاونة المجلس الأعلى للعلوم، بإشراف إدارة الثقافة العامة، وزارة التربية والتعليم، الإقليم الجنوبي، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ص١١٧، ١١٨).

منهـا، قـال تعـالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾إلـى قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1].

وقد أشار القرآن الكريم إلى عملية تنقية الماء التي تحدثها التربة، والتي ينتج عنها ينابيع عذبة متفجرة في مختلف بقاع الأرض تستمر بها دورة الحياة البيئية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾[2]، وخير مثال عملي مشاهد على دور التربة في تنقية المياه، هو المقارنة بين المياه الجارية والمياه الراكدة، فالمياه الجارية تحافظ على طهارتها ونقاوتها بسبب تخلصها المستمر لما تحمله من مواد ثقيلة عند تغلغلها في حبيبات التربة التي تعتبر محطات تصفية مستمرة عند مرور المياه منها، وذلك بخلاف المياه الراكدة.

وهكذا يتضح الترابط الوثيق بين الكائنات الحية والتربة والنبات، فكل ما يدور في التربة من تفاعلات دقيقة ينتج عنه صلاحية التربة للإنبات، أو ما تقوم به من دور هام في تصفية المياه لتصبح صالحة للشرب. كل ذلك يحدث بتوازن دقيق.

رابعا: النبات:

يمثل النبات أهم عناصر البيئة، وله الدور الفعال في الحفاظ على المنظومة البيئية، وقد أشار القرآن الكريم إلى التوازن الدقيق لعملية الإنبات في النظام البيئي عندما ربط الإنبات بنزول المطر وبالتربة التي يخرج منها النبات بأصنافه الشتّى، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾[3]، وقوله تعالى أيضا: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾[4].

([1]) سورة الرعد، الآية ١٧.

([2]) سورة الزمر، الآية ٢١.

([3]) سورة طه، الآية ٥٣، ٥٤.

([4]) سورة عبس، الآية ٢٤- ٣٢.

وهكذا يفهم من الآيات أن أدنى خلل في تقدير التوازن بين هذه العناصر مع بعضها البعض، فإن نمو النبات سيكون مستحيلا، وحياة الكائنات الحية بعد ذلك بما فيها الإنسان ستكون مستحيلة كذلك.

إن هذا التقدير الذي أخبر به القرآن الكريم لدورة الإنبات هو مشاهد للبشر جميعا، وهو كاف لإعمال عقولهم للتنقيب عن مدى دقة التوازن الذي قد لا تدركه حدقات عيونهم المجردة، فعملية البناء الضوئي التي يقوم بها النبات تحافظ على توازن الأوكسجين في الهواء بالقدر الذي تحتاجه الكائنات الحية من دون زيادة ولا نقصان، وقد دلت التجارب العلمية المتعددة التي أجريت لمعرفة دور النبات في الحفاظ على توازن الغازات في الجو«... أن إزالة الغابات في بعض الأماكن، كما في البرازيل وبعض مناطق أفريقيا، تساعد بشكل ظاهر على زيادة نسبة ثاني أكسيد الكربون في الهواء»[1].

كما أن للنبات ارتباطا آخر مع الرطوبة الجوية عن طريق عملية النتح التي تقوم بدفع كثير من المياه نحو الجو، فتساهم بذلك في تلطيف الجو، وتكوين السحب الممطرة التي تنتفع بمائها هي وجميع الكائنات الحية في الأرض، «وتساعد الأشجار في التحكم في تآكل التربة بفعل المياه والرياح...، وتفيد العناصر الغذائية الحيوية مثل النتروجين إلى التربة»[2].

ومما تجدر الإشارة إليه هو دور النبات في دفع التصحر والحد من زحفه الذي يهدد بتدمير التربة وتحويلها إلى كثبان من الرمال، والذي لولا وجود النبات لكانت الأرض صحارٍ قاحلة غير صالحة لحياة كثير من المخلوقات.

بل إن النبات يقوم بعملية توازن فريدة، حيث يُصلح ما يُفسده الإنسان في هذه الأرض، فقد ثبت علميا أنه يقوم بتطهير الأرض وامتصاص السموم والمبيدات الزراعية المستخدمة في الزراعة والصناعة الملوثة للتربة، والتي تسبب الكثير من الأمراض والأضرار للإنسان ولعموم الأحياء، ولعل «إحدى أهم ملتهمات السموم هذه عشبة برية

---

(1) د. أحمد مدحت إسلام: التلوث مشكلة العصر. سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٥٢، من إصدار المجلس = = الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس ١٩٩٠م، (ص٢٤).

(2) محمد سري إبراهيم دعبس: المحميات الطبيعية والتوازن البيئي. مرجع سابق، (ص٨٠).

منخفضة ذات زهيرات أنبوبية بيضاء صغيرة، وأوراق بيضاوية صغيرة واسمها "**العشبة الجدارية الصغيرة** "...، تصنيفها الجديد ضمن مجموعة جديدة تسمى النباتات "المطهرة للأرض "....، وميزة العشبة الجدارية الصغيرة أنها مفترس كبير لمادة الزرنيخ من الأرض»[١].

ولكل نوع من النبات ميزته وخاصيته التي يتميز بها عن غيره من حيث قيامه بتطهير الأرض من سموم معينة قد لا يقوم بها غيره، ويمثل بقاء هذه النباتات توازنا يحافظ على بقاء البيئة خالية من التلوث الذي يصيبها باستمرار بفعل يد الإنسان.

ولهذا فقد ثبت أن بعض النباتات لديها قدرة فائقة على تحييد الزئبق والسيلينيوم بعد امتصاصهما من الأرض ونتحهما إلى الخارج في شكل مركبات وغازات غير ضارة، وثبت علميا أن نبتة **ذيل الثعلب** تعمل على امتصاص السيزيوم المشع ٤٠مرة أكثر من غيرها، وأما نبتة PEOPLE HYBRID، وهي نوع من شجر الحور البرية فلها قدرة على سحب مادة " ترايكلوريثيلين" من المياه الجوفية وإطلاقها عبر مسامات وريقاتها الصغيرة، وقد ثبت بإحدى التجارب قدرة سيقان هذه الشجيرات على سحب الترايكلورايثيلين من الأرض بنسبة ٩٠%[٢].

لقد قدر الخالق –جل وعلا– لكل نبات الدور المناط به في تفاعله مع البيئة التي يعيش فيها بالقدر الذي لا يتجاوز الحدود المرسومة له، ولا يخرجه عن وظيفته المحددة له فيطغى على ما قُدِّر لغيره فيفسده، بل يسير وفق ميزان دقيق مقدر، قال **تعالى:** ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾[٣].

وظهر بهذا التوازن والتقدير الذي أودعه الله تعالى في علاقة النبات مع بعض عناصر البيئة الأخرى، والذي يدل على أن التوازن آية في كل شيء.

خامسا: الحيوان:

---

(١) سيف الدين يس محمد: البيئة رؤية إسلامية. مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد٤، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، يصدرها مجمع الفقه الإسلامي، رآسة الجمهورية، الخرطوم، السودان، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، (ص٢٢٠).

(٢) المرجع نفسه. بتصرف، (ص٢٢١، ٢٢٢).

(٣) سورة الحجر، الآية ١٩.

تمثل الكائنات الحية بمختلف أنواعها تنوعا متزنا في محيط البيئة، ويرتهن بقاءها ببقاء الكائنات الأخرى في البيئة على وفق التقدير الذي نظمت به من قبل رب العالمين القائل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[1]، ولذلك فجميع عناصر البيئة قد قدرت جميعها لكي تتناسب مع بقاء الكائن الحي حيا في هذه البيئة، بحيث لو انعدم عنصرا منها لاستحالت حياة هذا الكائن عموما، ويمكن أن تتضح حقيقة التوازن القائم في هذه البيئة من خلال الدورة الحياتية لهذه الحيوانات، فكما أن النبات هو المصدر لغذاء الإنسان وغذاء كثير من الحيوانات، فمن الحيوانات –أيضا– ما يمثل مصدرا آخر لغذاء الإنسان وغذاء كثير من الحيوانات الأخرى الأقوى افتراسا، ثم ما يموت من هذه الحيوانات – ومنها الإنسان والنبات – فإن «بكتريا التحلل... تحلل أجساد النباتات والحيوانات الميتة وبعض الفضلات الأخرى إلى أملاح النشادر، ثم إلى النترات، وتستخدم النباتات هذه النترات بعد أن تمتصها من التربة لتصنع منها البروتينات وغيرها من المركبات. وعندما تموت هذه النباتات والحيوانات تقوم أنواع أخرى من البكتيريا بتحليل أجسادها، وينطلق منها النتروجين إلى الهواء لتعود الدورة مرة أخرى»[2]، وهذه العلاقات الغذائية المتبادلة بين هذه الكائنات محسوبة بصورة دقيقة بحيث لا يحدث أي عجز غذائي لأيٍ من الأنواع الحيوانية في المحيط البيئي.

«ومن المفيد هنا ضرب الأمثلة توضيحا للصورة:

١. (٥٨٤٢٤٢٤) من المنتجات يلزم لإعالة (٧٠٨٦٢٤) من آكلات الأعشاب، وهذا العدد كاف لإعالة (٣٥٤٩٠٤) من آكلات اللحم الذي يكفي فقط لإعالة (٣) من آكلات اللحم الكبيرة.

٢. في المحيطات(١٥٠٤٤٠٤٠٠٠) طن من البلانكتون[3]النباتي يعيل(١٠٠٧٠٠٠٠٠) طن من البلانكتونات الحيوانية، وهذا كاف لإعالة (٤٠٠٠٠٠٠) طن من الأسماك

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٢.

(٢) د. أحمد مدحت إسلام: التلوث مشكلة العصر. مرجع سابق، (ص١١).

(٣) البلانكتون: مصطلح علمي أستعير من اللغة الإغريقية، ويقصد به الكائنات الحية التي تطفو على الماء وتستسلم لحركة التيارات والأمواج، وهي قسمان: نباتية، وهي مجهرية تحوي أجسامها على صبغة الكلوروفيل مما يجعلها قادرة على عملية البناء الضوئي، وبذلك فهي الكائنات الحية المنتجة في البيئة المائية، والقسم الثاني:

الأكبر، وذلك يكفي لإعالة (٤٠,٠٠٠) طن من الحيتان...، وفي سهول اليابسة يلزم (١٠٠٠٠٠٠) طن من الأعشاب لإعالة (١٠٠٠) طن من الحشرات والجرذان وغيرها، وهذا الكم يعيل فقط (١٠) أطنان من الصقور والثعالب والذئاب»[١].

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على دقة التوازن الغذائي الحاصل في البيئة بين الآكلات والمأكولات على مختلف أنواعها، فكل الأنواع تأخذ قسطها من دون أن يحدث أي عجز في غذائها، فالكثير من الآكلات قد لا تقتصر في غذائها على نوع معين، «فالصقور مثلا، وهي طيور جارحة تتغذى على الجرذان، فإذا ما انخفض عداد الجرذان تتحول الصقور إلى افتراس بعض أنواعٍ من بغاث الطير، وهذا يؤدي إلى تخفيف الضغط عن الجرذان، فتزداد أعدادها فتعود الصقور إلى افتراسها، فيخف الضغط عن الطيور، وهكذا دواليك..، وفي ذلك تنظيم يحفظ للشبكة الغذائية التوازن والاستمرار»[٢].

ويتضح بهذا أن أعداد الحيوانات في البيئة مقدر بشكل دقيق يتناسب مع ديمومة كل نوع بالقدر الذي يحقق التوازن من دون أي قصور أو طغيان، فالحيوانات المفترسة بجميع أنواعها تنضبط في تكاثرها على مقدار أعداد الفرائس من الحيوانات الأخرى التي تصطادها، فإذا قلّت الفرائس فإن الحيوانات المفترسة تقل كذلك لتبقى الأعداد متوازنة في المحيط البيئي، وبالتالي «فلا تزداد الحيوانات ولا النباتات بطريقة المتواليات الهندسية، ولكن تكاثرها يعتمد على كثير من العوامل الطبيعية، مثل: تقلبات الجو، ونقص الطعام، وانتشار بعض الأمراض، بالإضافة إلى الشعور الطبيعي الذي يوجد لدى بعض الحيوانات ويجعلها تمتنع من الإنجاب عندما تشعر بزيادة أعدادها، وتدخل كل هذه العوامل ضمن عوامل التوازن الطبيعي للبيئة»[٣].

ومما يزداد به التوازن جلاءً هي تلك العلاقة القائمة بين الفريسة والمفترس، فهذه العلاقة متوازنة جدا، فإذا كان الحيوان المفترس لديه القدرة على الافتراس، فإن الفريسة

حيوانات ضئيلة الحجم تعتمد في غذائها على هذه الهوائم النباتية، وهي تمثل المستهلكات الأولى في السلاسل الغذائية للبيئات المائية. أنظر: رشيد الحمد، محمد سعيد صباريني: البيئة ومشكلاتها. مرجع سابق، (ص٢٦٤).

(١) المرجع نفسه. (ص٦٠، ٦١).

(٢) المرجع نفسه. (ص٥٩).

(٣) د. أحمد مدحت إسلام: التلوث مشكلة العصر. مرجع سابق، (ص١٢).

لديها القدرة على الإفلات بالهرب أو بالاختباء، وبالتالي لا يقع في شرك الاصطياد غالبا إلا الحيوانات الضعيفة أو المريضة أو المسنة، وهذا بدوره يخلص هذه الحيوانات من الأفراد المرضى الذين سيتسببون في عدوى غيرهم، وبهذا يتم الحفاظ على الصحة العامة لهذه الفرائس، فيستمر إنتاجها، وتستمر دورة التوازن قائمة في البيئة.

ومن التوازن أيضا بقاء هذه الكائنات في مواطنها، فالتدخل في تغيير هذا النظام بنقل بعضها إلى بيئات أخرى غير بيئاتها، أو العمل على زيادة نوع معين أو إنقاصه له عواقب وخيمة وضارة، ومما يدل على هذا ما حدث «في إحدى بحيرات مقاطعة مونتانا بالولايات المتحدة الأمريكية، ففي هذه المنطقة تقوم الدببة والنسور وكذلك أسماك السالمون المرقط بالتهام أسماك سالمون كوكاني. ويتغذى هذا النوع الأخير على المعلقات الحيوانية بالبحيرة، وتلك تتغذى بدورها على الطحالب والمعلقات النباتية الأخرى. ورغبة من المواطنين في هذه المنطقة في زيادة محصول سمك كوكاني، فقد جلبوا كميات كبيرة من صغار جمبري الأوبوسوم وألقوها في البحيرة لكي تتكاثر فيأكلها سمك كوكاني مما يزيد من أعداده حتى يصطادوه بكميات وفيرة، ولكن حدث عكس ما توقعوه، فقد تزايدت أعداد جمبري الأوبوسوم أكثر مما ينبغي، واستهلكت أعداده الضخمة المعلقات الحيوانية التي كان سمك السالمون يعتمد عليها أساسا كغذاء له، وبذا انخفضت أعداد السمك بدرجة خطيرة، وانحسرت أعداد النسور والدببة التي تأتي إلى البحيرة لتجد غذاءها من السالمون، وأدى ذلك إلى خلل بعيد الأثر في النظام البيئي في المنطقة»[1].

إن كل نوع من أنواع الكائنات الحية له ما يقابله من الآفات التي تحد من نشاطه وخطره في بيئته التي هو فيها، فإذا ما تم نقله من موطنه فإن فرصة انتشاره الواسع من دون عوائق مهيأة أمامه بسبب غياب الأعداء الذين يحدون من نشاطه لإبقاء معادلة التوازن قائمة، وقد تبين من خلال الأبحاث العلمية الحديثة والتطبيقات العملية أن «النباتات والحيوانات غير الضارة في مواطنها الأصلية قد تصبح آفات بعد نقلها لأماكن جديدة، مثل صبار التين الشوكي والأرنب الأوروبي اللذان أدخلا إلى استراليا، كلاهما أصبح بريا وغطى ملايين الأفدنة.

---

(1) أ.د. علي علي مرسي، د.محمد محمد الشاذلي: علم البيئة العام والتنوع البيولوجي. مرجع سابق، (ص١٦٩).

التين الشوكي أمكن مقاومته... بإدخال الحشرات المعادية التي تعمل على الحد من انتشاره في موطنه الأصلي بالصحراء الأمريكية. والأرنب أمكن تقليل أعداده باستجلاب مرض الأورام المخاطية (ميكزوماتوزيس)»[1].

فتبين بهذا أن البيئة بما فيها من الجمادات والأحياء قد خلقها الباري جل وعلا في غاية الإتقان والاتزان، وأن أدنى خلل في أي عنصر من عناصرها مهما كان يسيرا، فإن توازنها سيختل وضرر ذلك سيكون خطيرا على البيئة بأجمعها.

سادسا: الجاذبية الأرضية:

ومما لاشك فيه أن للجاذبية الأرضية دورا فعالا في الحفاظ على التوازن البيئي، فإليها يرجع الفضل في استقرار الأشياء على وجه الأرض لتتم دورة البيئة بالشكل المنتظم، ولولا التقدير الدقيق لهذه الجاذبية لاضطرب التوازن، واختل النظام القائم بين جميع الأشياء، ذلك لأنه «لو كانت الجاذبية الأرضية أقوى مما هي عليه لتسبب ذلك في تراكم المزيد من غاز الأمونياك وغاز الميثان في الغلاف الجوي، وبالتالي صعوبة الحياة على كوكب الأرض، ولو كانت أضعف مما هي عليه لتسبب ذلك في فقدان الغلاف الجوي للكثير من الماء، وبالتالي انعدام الحياة على هذا الكوكب»[2].

وأما لو انعدمت الجاذبية، فإن الحال سيكون أسوأ بكثير؛ لأنه لن يبقى على وجه الأرض جسم ثابت، وستستحيل حياة أي كائن حي وفق هذه الوضعية، فالنبات لن ينمو بسبب استحالة سقوط الأمطار إلى الأرض في غياب الجاذبية، وعملية التبخير المستمرة التي تُحدثها حرارة الشمس في البحار والمحيطات ستتسبب في جفاف جميع هذه المسطحات المائية وكل ينابيع الأرض؛ لأن الدورة المائية التي تحدث على وجه الأرض لتعيد المياه المتبخرة إلى الأرض مرة أخرى في صورة مطر يغذي الينابيع والأنهار ستتوقف بسبب عدم وجود الجاذبية، والهواء لن يبقى محيطا بالأرض لشدة حركة جزيئاته التي ستتسبب في تفلّته ومفارقته للأرض، إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث، حيث «... أن

---

(1) تراس ى. ستورر، روبرت ل. يوسنجر، جيمس و. نيباكين، روبرت س. ستيبنس: أساسيات علم الحيوان. ترجمة: أ.د. محمد عبد الواحد سليمان، أ.د. رسمي بولس جرجس، أ.د. يحيى السعيد العاصي، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة العربية الثالثة، ١٩٩٥م، (ص٣١٠).

(2) هارون يحيى: سلسلة المعجزات. مرجع سابق، (ص٥٩).

سرعة الإفلات الأرضية التي تبلغ ٦,٩٥ أميال (١١,٢) كيلو مترا في الثانية، كبيرة إلى درجة تكفي لاحتجاز الغازات في الغلاف الأرضي الجوي»[١].

وهذا تقدير متناه في الدقة راعى سرعة حركات الغازات في الغلاف الجوي، فجاء تصميم الخالق تبارك وتعالى للجاذبية بما يتناسب مع بقاء هذه الغازات بالصورة النافعة التي تحمي الأرض، وتنتظم معها دورة الحياة على البيئة، كما يتبين التوازن أيضا في مقدار ما تحتاجه الكائنات الحية من جاذبية موزونة تبقيها على سطح الأرض فتمنعها من الإفلات إلى الفضاء الخارجي، وتتناسب في نفس الوقت مع حركتها ونموها على الأرض فلا تعيقها في شيء من ذلك، «وقوة جاذبية الأرض شيء ملموس لنا، فمياه البحار، والصخور السائبة، والأجسام المتحركة – ومنها الإنسان أيضا – تبقى على ظهر الأرض بفضل هذه القوة التي لولاها لما أمكن للأرض أن تحتفظ بشيء مما على أديمها، ولما كان كل جزئين من المادة يتجاذبان بمعدل مساو لكتلة كل منهما، ومربع المسافة بينهما»[٢].

إن الجاذبية متوازنة بشكل دقيق حتى مع جريان السوائل في أجسام الأحياء، ويمكن ملاحظة ذلك عند النظر إلى حال الاضطراب الذي يحصل للدورة الدموية لشخص يكون بعيدا عن نطاق هذه الجاذبية الأرضية، فمثلا:

«في محطة الفضاء الدولية تنعدم قوة الجاذبية الأرضية، ويكون ضغط وجريان الدم داخل أجسام رواد الفضاء مختلفا عما هو على الأرض، فليست هناك قوة تسحب الدم إلى أطرافهم السفلى، وبدلا من ذلك يذهب الدم إلى الصدر والرأس مسببا انتفاخ وجوههم وبروز العروق الدموية في رقابهم. وهو مظهر ليس قبيحا وحسب، بل له تأثير جانبي. فنقص جريان الدم من وإلى الدماغ أو المخ يجعل رواد الفضاء يشعرون بالدوخة، وأحيانا بالإغماء عندما يعودون إلى قوة الجاذبية في الأرض»[٣].

---

(١) وليام سي. فيرجارا: العلم في دنيانا. مرجع سابق، (ص١٤٧).

(٢) د. صلاح الدين بجيري: مبادئ الجغرافيا الطبيعية. مرجع سابق، (ص١١).

(٣) د. عبد الأمير مهدي مطر: الدورة الدموية وانعدام الجاذبية. مجلة العربي العلمي، العدد ٣٦، جمادي الأولى١٤٢٩هـ/مايو ٢٠٠٨، (ص٢٣).

فظهر بهذا دقة التوازن بين الجاذبية الأرضية وجريان السوائل في أجسام الكائنات الحية والذي بدونها يحصل الخلل والفساد الذي تستحيل معه الحياة، فسبحان القائل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[1]، والقائل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[2].

المبحث الخامس

التوازن في خلق الأجهزة والأعضاء

إن أجهزة وأعضاء الكائنات الحية محكمة الخلق، وهي جارية على التوازن والاعتدال في وضعها وفي عملها، ولولا ذلك لما استقامت الأبدان واتزنت في بنائها وفي وظائفها، فهي مستوية الخلق، ومتناسقة البناء لما يحقق وظيفتها المناطة بها، قال تعالى:﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[3]، «... والتسوية: التقويم والتعديل. وقد خلق الله كل مخلوق مستوٍ على أحسن ما يتناسب لخلقته وما خلق له...»[4]، قال تعالى:﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[5]، قال الطبري: «وقوله: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، يقول: فسوى كل ما خلق وهيأه لما يصلح له، فلا خلل فيه ولا تفاوت»[6].

وقال السعدي في تفسيره: «﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾: أي أعطى كل مخلوق منها ما يليق به ويناسبه من الخلق وما تقتضيه حكمته من ذلك، بحيث صار كل مخلوق لا يتصور

---

(1) سورة الفرقان، الآية ٢.

(2) سورة القمر، الآية ٤٩.

(3) سورة الأعلى، الآية ٢.

(4) الشنقيطي: أضواء البيان. مرجع سابق، (ج٨، ص٥٠١).

(5) سورة الفرقان، الآية ٢.

(6) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٨، ص١٨٠).

العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد لا يناسبه غير محله الذي هو فيه...»[1]، وزيادة في الإيضاح سيتم بيان هذا المبحث كما يلي:

أولا: التوازن في وضع الأعضاء الظاهرية في البدن:

عند النظر إلى جسم أي كائن حي يتبين أن أعضاء بدنه الظاهرية موضوعة في مواضع محددة بشكل متقن ومتوازن، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن أعضاء المشي المتعددة للكثير من الدواب هي واحدة من ثلاث: إما الزحف على البطون، أو المشي على رجلين، أو المشي على أربع، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، ولا يخفى هنا أن أعضاء المشي متوازنة، فالبطون خشنة ومستوية لمن حال مشيه الزحف، والقدمان متماثلتان لمن يسير عليهما، وأما من يمشي على أربع، فالقدمان الأماميتان متساويتان مع بعضهما، والخلفيتان متساويتان مع بعضهما أيضا، وهذا توازن بين في هذه الأعضاء. وبموجب هذا التوزيع الذي أشارت إليه الآية، فكل عضوان متماثلان في البدن فإنهما متوازنان في وضعهما، كالعينين والأذنين والشفتين والذراعين كما في الإنسان وسائر الحيوانات التي توجد فيها هذه الأعضاء، وكالجناحين كما في سائر الطيور والحشرات، وكالزعانف المزدوجة كما في سائر الأسماك والكثير من الأحياء المائية...

وكذلك الحال في النباتات فوريقاتها تأخذ أشكالا هندسية متزنة، وتتناوب كل ورقة مع أختها في غصن الشجرة في تدرج متناسق ومنتظم.

وأما الأعضاء المنفردة في البدن فإنها تأخذ مكانا متوسطا في أي مكان ورد موضعها فيه، كالأنف والفم واللسان والذيل والأعضاء التناسلية والبولية...، ولا يخفى ما في هذا الوضع من تقدير وتوازن ظاهر.

---

(1) السعدي: تيسير الكريم الرحمن. مرجع سابق، (ج١، ص٥٧٧).

(2) سورة النور، الآية ٤٥.

وقد يُفهم من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾[1] إشارة إلى توازن الأعضاء الظاهرية المزدوجة والمنفردة في بدن الإنسان، فالعينين والشفتين تشيران إلى توازن الأعضاء المزدوجة في عموم الأبدان، واللسان يشير كذلك إلى توازن الأعضاء المنفردة التي تتوسط مواضع معينة في عموم الأبدان–أيضا– سواء كان ذلك من أعلاها أو من منتصفها أو من أسفلها، ومع النظر والتأمل يتضح هذا التقدير الرباني البديع في هذه المخلوقات.

ثانيا: تلاؤم الأعضاء مع بعضها البعض:

لا يمكن لأي عضو من الأعضاء في بدن أي كائن حي أن يعمل منعزلا وبعيدا عن بقية أعضاء البدن الأخرى، كأن تعمل الذراع المبتورة عن الجسد بعد بترها، أو يعمل الجهاز الهضمي وحده بعيدا عن أجهزة البدن الأخرى، أو يعمل الجهاز التنفسي منفردا بعيدا عن البدن أيضا؛ لأن جميع أعضاء وأجهزة الجسد كلها تتكامل في عملها مع بعضها البعض بما يحقق مصلحة الجسد كله، ولذلك فأي خلل في عمل أي عضو من أعضاء هذا الجسد، فإنه يسبب التداعي الكامل لجميع أعضاء الجسد، وقد أشارت السُنة إلى هذه الحقيقة الكامنة في الأبدان، كما في حديث النُّعْمَانَ بن بَشِيرٍ –ﷺ– قال: قال رسول اللَّهِ –ﷺ–: "تَرَى الْمُؤْمِنِينَ في تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى له سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[2].

ولذلك يتجلى التلاؤم الكامل في عمل وحركة أعضاء أي كائن حي سواء كان بريا، كأي دابة من دواب الأرض العشبية أو المفترسة، أو مائيا كالأسماك وغيرها، أو برمائي، كالسلاحف والتماسيح والضفادع ونحوها، أو طيرا من الطيور أو حشرة من الحشرات...، فالاعتدال والتناسب في خلق الأعضاء يظهر في تناسق جسد الكائن الحي، وسهولة حركته، وتعامله المتزن مع ما يألفه وما يخاف منه في محيطه البيئي.

ولما كانت التسوية والاعتدال هي حقيقة قائمة في خلق كل شيء، فإنها أوضح ما تكون في خلق الإنسان، ولذلك ذكّر الله تعالى الإنسان بهذه الحقيقة الماثلة فيه،

---

(1) سورة البلد، الآية ٨، ٩.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٥، ص٢٢٣٨، حديث رقم: ٥٦٦٥).

فذكرها في معرض ما امتن به عليه، حيث قال تعالى ذكره: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾[1].

قال ابن كثير: «أي جعلك سويا مستقيما معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال»[2]، وهذا هو ما يوافق قول الله تعالى:﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3]، «أي في أحسن تعديل خلقا وشكلا، صورة ومعنى»[4].

وقال النسفي: «في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية أعضائه»[5].

فالأعضاء مخلوقة بتوازن دقيق كي تتناسب مع بناء الجسد ووظيفته، وهذا ظاهر في جسد كل كائن حي، ولا يحتاج التحقق من هذا الأمر إلا إلى قليل من التأمل في بناء هذه الكيانات المنتشرة في كل مكان من الغلاف الحيوي على الأرض، ويغني عن تتبع ذلك كله النظر والتأمل في بناء النفس الإنسانية، فقد انطوت على غاية التسوية والتعديل، ولذلك فإن القرآن الكريم يلفت الأنظار إلى التأمل في آيات الله تعالى التي أودعها في خلق هذه النفس الإنسانية، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾[6]، ولعل أبرز ما يسترعي الانتباه في ذلك هو آية التوازن البديع في بناء هذا الكيان وتلاؤم أعضائه.

ثالثا: عرض لعمل مجموعة من الأعضاء لبيان دورها في الاتزان البدني:

إن مجرد النظر إلى أي كائن حي وهو يقوم بوظائفه المعتادة له، يتبين على الفور الدقة المتناهية التي صمم بها كيانه وبدنه، ويتبين كذلك الدقة المتناهية في ما تقوم به الأعضاء من توازن مع بعضها البعض في تحقيق الاتزان الكامل للبدن،

---

(1) سورة الانفطار، الآية ٧.

(2) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٤، ص٤٨٢).

(3) سورة التين، الآية ٤.

(4) محمد جمال الدين القاسمي: تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل. ضبطه وخرج أحاديثه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، (ج٩، ص٥٠٣).

(5) النسفي: تفسير النسفي. مرجع سابق، (ج٤، ص٣٤٧).

(6) سورة الذاريات، الآية ٢١.

وسيستعرض الباحث هنا مجموعة من الأعضاء في جسم الإنسان لبيان بعض ما تقوم به من توازن في بدنه:

١. الجهاز العصبي:

لا يمكن الوفاء بالتعبير عن الدقة التي يتميز بها تصميم الجهاز العصبي، وكذا دوره العظيم في عملية الاتزان الذي تمارسه أعضاء البدن، فهو بأجزائه المتعددة من الدماغ والحبل الشوكي والأعصاب أشبه ما يكون بجهاز حاسوب منظم يسيطر بشبكته الهائلة من الأعصاب المختلفة على جميع الأجزاء المتصلة به من الجسم فيجعلها تعمل بتوازن وانتظام.

فالدماغ بأعضائه المكونة له من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل، يتحكم في كثير من نشاطات الجسم المختلفة، حيث يقع على كل عضو منه مسؤولية معينة، **فالمخ** – الذي يتكون من نصفي كرة مخيتين– يعمل بشكل دقيق، حيث يتولى النصف الأيمن منه إدارة الأجزاء اليسرى من الجسم، وقد تبين أن الوظائف التي تتركز فيه هي تلك المرتبطة بالحدس والانفعال والإبداع واستخدام الخيال، ولهذا يسمى(بالنصف الحدسي). وأما النصف الأيسر المسمى (بالنصف التحليلي العقلي)، فيتولى إدارة وتحريك الأعضاء اليمنى من الجسم، وعلى هذا فإذا حدث توقف للعمل في النصف الأيسر من المخ، فإن ذلك سيؤدي إلى حدوث شلل في مناطق وأعضاء يمنى من الجسم، وأما إذا حدث الشلل في المناطق والأعضاء اليسرى من الجسم فإن هذا يعني أن العمل قد توقف في بعض مناطق النصف الأيمن من المخ[١].

وأما **المخيخ** – وهو ذلك الجسم ذو الشكل البصلي، المُكوَّن من نصفين كرويين، والذي يوجد أسفل المخ من الخلف– فإنه يحتوي على مركز تنسيق الحركات وتوافقها، فضلا عن أنه المنظم العظيم **للحركات الإرادية**[٢].

---

(١) د.عبد الستار إبراهيم: الإنسان وعلم النفس. سلسلة كتب عالم المعرفة، العدد ٨٦، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، فبراير ١٩٨٥م، بتصرف، (ص٦٧، ٦٨).

(٢) أنظر: كرستين تمبل: المخ البشري. ترجمة: د.عاطف أحمد، سلسلة كتب عالم المعرفة، العدد ٢٨٧، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر ٢٠٠٢م، (ص١٨)، د.عبد الستار إبراهيم: الإنسان وعلم النفس. مرجع سابق، (ص٦٧).

ولـذلك فالفضـل يرجـع إليـه بدرجـة أساسـية فـي تـوازن الجسـم وانتظـام حركاتـه المتعددة من المشي والكلام والكتابة، وغير ذلك مما يصدر عن الإنسان، فمثلا:

«يـتم الحفـاظ علـى تـوازن الجسم فـي وضـعية الانتصـاب وعـدم التـرنح والاهتـزاز أثنـاء الوقـوف أو المشـي بفضـل جهـاز خـاص بـالتوازن يتكـون مـن مسـتقبلات التـوازن الميكانيكية الموجودة في القنوات الهلالية الثلاث، ومن العصبونات الحسية المسئولة عن التوازن من العصب السمعي، ومن المنطقة العليا الموجودة في المخيخ»[١].

ورغم الدقة في الأداء فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن ينفرد المخ أو المخيخ بالعمل بعيدا عن الآخر، بل يتعاونان جميعا في أداء وظيفتيهما وضبط مهمتهما.

وأما **النخاع المستطيل**، فهو الذي يكون الجزء الأسفل من المخ ويتصل مباشرة بالحبل الشوكي، وفيه تستقر **مراكز الوظائف اللاإرادية** الضرورية للحياة، كتنظيم عملية التنفس، وكذا تنظيم كل من ضربات القلب، والدورة الدموية، وضغط الدم...[٢]

ويبلغ التوازن مداه بتفرع الأعصاب التي تتصل بجميع أجزاء الجسم من كل من الدماغ والحبل الشوكي لِتكوِّن في النهاية مجموعتين متكاملتين من الأعصاب هي أعصاب الاستقبال والأعصاب الحركية، فالأولى تتحدد وظيفتها **بنقل المعلومات من الأجزاء الداخلية للجسم**، كالتي في الأحشاء لكي تساعد على الإحساس بتغير اتجاه الجسم، والدفء، والضغط الخارجي. و- أيضا- **بنقل المعلومات من أطراف الجسم الخارجية** عن طريق الأعصاب الحسية الخمسة الخاصة بالإبصار، والسمع، والذوق، والرائحة، واللمس إلى المراكز الملائمة في المخ، حيث يتم فحصها وفرزها، ومن ثم توجيه الأوامر المناسبة إلى الأعصاب الحركية، والتي بدورها تستجيب للأوامر بإبراز الاستجابة الحركية الملائمة بسرعة تصل في أقصاها إلى ٢٠٠متر في الثانية[٣].

---

(١) د.رمزي الناجي، د.عصام الصفدي: علم وظائف الأعضاء. دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، الطبعة العربية، ٢٠٠٥م، (ص٥٦).

(٢) د.عبد الستار إبراهيم: الإنسان وعلم النفس. بتصرف، مرجع سابق، (ص٦٧).

(٣) المرجع نفسه. بتصرف، (ص٩٢، ٩٣).

إن هذا الانسجام القائم بين أعصاب الاستقبال وأعصاب الحركة قائم على توازن شديد الحساسية يمكن ملاحظته من خلال الحركة السريعة المضادة التي يُحدثها الجسم عند وخزه بإبرة، أو ملامسته الفجائية لجسم شديد السخونة.

ولا يقف الدور للجهاز العصبي عند هذا الحد، فهناك مناطق أخرى منه مسؤولة عن ضبط التوازن في الجوانب الانفعالية في السلوك، كالدور الذي يقوم به الجهاز العصبي المستقل من خلال وظيفتيه الرئيسيتين:

أ- الوظيفة السمبتاوية: وهي وظيفة إستثارية تُحدث للجسم حالة تحفز لمواجهة الخطر، فتتسارع عندها دقات القلب، ويرتفع ضغط الدم، وتعرق الأيدي...

ب- الوظيفة الباراسمبتاوية: وهي الكافة والمهدئة التي تستعيد الحالة الطبيعية للجسم فتعيده إلى توازنه المعتاد[1].

وهكذا يتبين التوازن في أداء هاتين الوظيفتين، فإذا كانت الوظيفة (السمبتاوية) من شأنها إثارة وظائف الجسم المختلفة في حالات الخطر المتنوعة، فإن الوظيفة (الباراسمبتاوية) من شأنها كف الاستثارة الزائدة في الحالات الانفعالية والعودة بالجسم إلى حالته السوية التي تتطلب توازنا دقيقا بين نشاطي الوظيفتين. وهذا أمر لابد منه، إذ لو بقيت الوظيفة الاستثارية (السمبتاوية) تعمل وحدها بوتيرة مستمرة بعيدا عن عمل نظيرتها الكافة(الباراسمبتاوية) لحدثت عواقب وخيمة وتلفت الأعضاء نتيجة للانفعال الدائم. ولو حدث العكس لما كان في الجسم أي استعداد أو تهيؤ لمواجهة حالات الخطر المختلفة بالصورة المناسبة التي تحفظ له السلامة منها، ولكان قد وقع منذ زمن بعيد ضحية ولقمة سائغة لأول خطر داهمه ونزل به.

وبهذا يتضح الدور الهام لهذا الجهاز في ضبط التوازن في مختلف أجزاء الجسم، وتنبيهه عند الخطر لاتخاذ الوضع المناسب الذي يمنع عنه حدوث أي خلل قد يتسبب فيه ذلك الخطر.

٢. القلب أو الجهاز الدوري:

---

(1) كرستين تمبل: المخ البشري. بتصرف، مرجع سابق، (ص١٨٨، ١٨٩).

إذا نُظر إلى الانتظام في الحركة الدورانية للدم داخل البدن، فسيتبين أن عضلة القلب تتحكم في توزيع وتنظيم ما يحتاجه كل عضو في البدن من المواد والعناصر اللازمة له عبر هذا الدم الذي يدور في مختلف الشرايين والأوردة والشعيرات الدموية، فيحدث نتيجة لذلك أن جميع الأعضاء في البدن تعمل بانتظام وتناسق من دون أدنى خلل أو اضطراب. وقد ورد في السنة النبوية الشريفة ما يؤكد هذه الحقيقة الثابتة في هذا الجسد، حيث أخبر النبي-ﷺ- بأن صلاح سائر أعضاء البدن أو فسادها متوقف على صلاح مضغة القلب أو فسادها.

فقد ثبت في الصحيح من حديث النُّعْمَانَ بن بَشِيرٍ-رضي الله عنه- أنه قال: سمعت رَسُولَ اللَّه -ﷺ- يقول:"...ألا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ألا وَهِيَ الْقَلْبُ "[1].

وقد أظهرت الأبحاث العلمية التي دارت حول علم وظائف الأعضاء بأن القلب يقوم بدور جلي في ضبط التوازن في سائر أعضاء الجسد من خلال ما يقوم به من وظائف متعددة في هذا الأمر عن طريق الدورة الدموية التي تجوب البدن كله.

ويمكن ذكر أهم تلك الوظائف في ضبط عملية التوازن في البدن كما يلي:

أ- المحافظة على توازن السوائل داخل الجسم، حيث يعمل الجهاز الدوري على نقل السائل الفائض في الأنسجة إلى الكليتين والغدد العرقية لطرحه خارج الجسم.

ب- المحافظة على توازن القواعد والحوامض، حيث تعمل البروتينات كعوامل منظمة، فالدم يحتوي على العديد من الأنظمة الواقية للحفاظ على (PH)[2]، وأهم هذه الأنظمة هو نظام البيكربونات، وحامض الكربونيك.

ج- نقل وتنظيم إفرازات الهرمونات، فالدم يقوم بنقل الهرمونات التي تفرزها الغدد إلى الأنسجة، كما أن إفراز الهرمون يتم بواسطة الدم، فعندما يرتفع معدل الهرمون في

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج١، ص٢٨، حديث رقم: ٥٢).

(2) مصطلح يطلق على الرقم الأيدروجيني في الدم، وهو ثابت في نطاق ضيق (مابين ٧,٣ و٧,٥) في الأفراد الأصحاء، والحفاظ على هذا المستوى يعتمد على فاعلية منظومة ضابطة للحموضة. أنظر: د. جورج فريد، د. جورج هاديمينوس: البيولوجيا ملخصات إيزي شوم. ترجمة: أ.د. عفيفي محمود عفيفي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة – مصر، الطبعة العربية الأولى، ٢٠٠٦م، (ص١٥٣).

الدم عن المستوى السوي يقل إفرازه، وعندما يقل معدله في الدم يزيد إفرازه، وتدعى هذه العملية بالتغذية الراجعة.

د- عملية التخثر: يعمل الدم على الوقاية من النزيف بواسطة التخثر، فيحافظ على كمية الدم الطبيعية في الجسم.

هـ- الحفاظ على توازن حرارة الجسم[1].

وإن مما يدل على التوازن في عمل الجهاز الدوري هو جريان الدم في الأوعية الدموية بصورة مستمرة من دون أن يتسبب ذلك في إحداث أدنى نحت أو تآكل في جدرانها الداخلية، كالنحت الذي تحدثه السوائل عندما تجري على السطوح، أو أن يحدث للدم تخثر في داخل الأوعية الدموية، كالذي يحدث عندما يصاب أي موضع من الجسد بجرح ما فيتخثر على إثر ذلك موضع الجرح بوقت يسير.

إن شيئا من ذلك لا يحدث؛ لأن المولى عز وجل قد قدر تسوية ذلك كله، فجعل «نعومة السطح البطاني للأوعية الدموية، وهو من أهم عوامل منع تخثر الدم، ووجود الشحنة السالبة لهذا السطح الداخلي حيث تطرد العوامل المخثرة والصفائح الدموية موجبة الشحنة، فتمنع تشكل السدادة الصفيحية...»[2].

وإضافة إلى ذلك فإن تكوين الجدر الداخلية للأوعية الدموية من طبقة مرنة وملساء يمثل تقديرا دقيقا ! إذ أنه يمنع تآكل هذه الجدران، ويسهل للدم سرعة التدفق والجريان عبرها في دورته المعتادة له مِنْ وإلى القلب.

٣. الكلية:

تعمل الكلية بشكل دقيق للحفاظ على ضبط توازن الماء والملح داخل البدن، فمعظم المواد الذائبة في بلازما الدم تمر إلى محفظة الأنيبية البولية في المرحلة الأولى لعملية الترشيح لتكوين البول، حيث يمتص الدم المواد اللازمة للحفاظ على مستويات التوازن البدني المناسبة لكل عضو من باقي الأنيبية، وبتنظيم الكميات الممتصة يتم التوصل إلى توازن في الدم عند مستوى الكلى. ويعتبر هرمون مضاد التبول العامل

---

(١) د.رمزي الناجي، د.عصام الصفدي: علم وظائف الأعضاء. بتصرف، مرجع سابق، (ص٦٥، ٨٢، ٨٣).

(٢) المرجع نفسه. (ص٩٢).

الأساسي للحفاظ على التوازن المائي، حيث يتم تخليقه بواسطة منطقة صغيرة نسبيا من تحت المهاد، والتي هي جزء متعدد الوظائف من المخ، ويزيد هذا الهرمون من نفاذية جدر الأنابيب الجامعة للماء، فيؤدي هذا إلى تكوين بول مركز. وينظم الألدوستيرون- وهو مادة ستيرويدية تفرزها قشرة الكظر- النقل النشط لأيونات الصوديوم، وفي وجود مستويات عالية من الهرمون يعاد امتصاص أيونات الصوديوم من الترشيح في الأنيبية إلى الأوعية المحيطة، وهي عملية تحافظ على الملح[1].

وهذا التوازن الدقيق للغاية بين نسبة الماء والأملاح غير العضوية في الدم يحافظ على سلامة الجسد من حدوث أي اضطرابات قد تصيبه نتيجة للزيادة أو النقصان في نسبة كل منهما، ولذلك نجد أنفسنا لا نستغني عن شرب الماء العذب، ولا نستسيغ أكل طعام من دون ملح.

وقد ثبت علميا أنه «لو حدث نقص في الأملاح الموجودة في الطعام، فقد تسوء الأمور إلى حد بعيد، وبالمثل لو حدث نقص في الماء العذب أو ما يعادله، فإن الأملاح تتراكم في الدم وتضطرب كل عمليات الجسم، ومن المحتمل أن يحدث الهذيان»[2].

ولذلك يشعر المرء عندما يأكل أكلة يكون فيها الملح زائدا- كالسمك مثلا- بالظمأ وبالتحفيز المستمر لشرب الماء، وهذا بدوره يخفف من زيادة تراكم الأملاح في الدم إلى الدرجة المتوازنة تماما مع حاجة الجسم.

وهكذا يظل الجسم يتعامل مع ما يدخل إليه وما يخرج منه بتوازن كامل، فما يتناوله يساوي ما يخرجه، فإذا شرب كثيرا من الماء مثلا، فإنه بالمقابل يخرج كميات كثيرة من البول. وإذا فقد جسمه كميات كبيرة من الماء بسبب الحرارة أو الإجهاد، فإن ما يحدث من جفاف في الفم وشعور بالظمأ يدعوه إلى شرب كميات كبيرة من الماء العذب -أيضا- لتعويض ذلك الفاقد، ولهذا فإن التوازن المائي في الجسد دقيق جدا.

---

(1) د. جورج فريد، د. جورج هاديمينوس: البيولوجيا ملخصات إيزي شوم. بتصرف يسير، مرجع سابق، (ص١٦٥، ١٦٦).

(2) ج. آرثر تومسون: مشكلات تحير العلم. مرجع سابق، (ص١٤٧).

ويمكن بيان ذلك بحساب ما يحصل عليه الإنسان وما يفقده من ماء في اليوم الواحد، حتى تتبين عملية دقة الضبط والتقدير في أداء الأعضاء لتحقيق هذا الاتزان:

ما يحصل عليه الإنسان من ماء في اليوم		ما يفقده الإنسان من ماء في اليوم	
ماء الشرب	١٤٠٠ سم^3	في البول عن طريق الكليتين	١٥٠٠ سم^3
ماء مع الطعام	٩٠٠ سم^3	في العرق عن طريق الجلد	٦٠٠ سم^3
ماء الأيض المتكون داخل خلايا	٤٠٠ سم^3	في هواء الزفير عن طريق الرئتين	٥٠٠ سم^3
الجسم أثناء التفاعلات الكيميائية		في البراز عن طريق الأمعاء	١٠٠ سم^3
المجموع	٢٧٠٠ سم^3	**المجموع**	٢٧٠٠ سم^3

وبهذا يتضح أن مجموع ما يحصل عليه جسد الإنسان من ماء في اليوم الواحد، يساوي تماما ما يفقده. فسبحان الذي أقام الميزان في كل شيء[١].

٤. الجلد:

من المعلوم أن الجلد يغطي كل البدن، وتنتشر تحته شبكة من الأوعية الدموية، كما تنتشر تحته – أيضا– الملايين من الغدد العرقية، والتي تفرز العرق عن طريق مسامه المنتشرة على سطحه، وهذا النظام الذي صمم به الجلد يساهم بشكل فعال في تنظيم حرارة جسم الإنسان لإبقائها ثابتة عند درجة ٣٧°م مع المنظم الأساسي للحرارة والذي يوجد في المخيخ[٢].

إن هذه الدرجة تبقى ثابتة في مختلف الظروف والأحوال سواء كان الجو باردا أو حارا، وسواء كان الشخص في حالة يقضة أو في حالة نوم.

و«يتم تنظيم عملية ثبات درجة الحرارة بوجود مركز السيطرة العصبي في الجهاز العصبي، وبالتحديد في منطقة تحت المهاد (الهيبوتلامس)، والتي تحتوي على مركزين، الأول: مضاد للارتفاع في الحرارة، والآخر: مضاد للانخفاض.

---

(١) د.محمد إسماعيل محمد، د.حلمي بشاري، د. يحيى العاصي، د.منى شرقاوي، د. تغريد عبد الرحمن: = = أساسيات علم الحيوان. سلسلة الفكر العربي لمراجع العلوم الأساسية، العدد٢١، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، بتصرف يسير، (ص١٥٠، ١٥١).

(٢) أنظر: الان إ. نورس: جسم الإنسان. هيئة التحرير: رنيه دوبو، هنري مارجينو، س. ب. سنو، مكتبة لاين العلمية، طبع بواسطة مؤسسة تايم عام ١٩٦٤م، و ١٩٦٥م، (ص٣٨).

ففي حالة تأثر الخلايا العصبية للمركز المضاد للارتفاع، يقوم بإطلاق سيل من الإيعازات العصبية عن طريق ألياف عصبية إلى الغدد العرقية، فتقوم بإفراز العرق، وإلى الأوعية الدموية فتتمدد! الأمر الذي يؤدي إلى تخلص الجسم من الحرارة»[1].

وإضافة إلى ذلك فإن الغدد العرقية عندما تُخرج العرق عبر مسامها إلى سطح الجلد، فإن الهواء الموجود خارج الجسم يقوم بتبخير العرق، وهذا يساهم في تبريد إضافي للجسم. وعلى العكس من ذلك عندما تنخفض درجة الحرارة، فإن إفراز العرق يقل، وتقل كمية الدم الذاهبة إلى الجلد ! الأمر الذي يؤدي إلى المحافظة على ما تبقى من حرارة داخل الجسم، وكلما انخفضت درجة الحرارة زاد في المقابل انقباض عضلات الجسد، فيؤدي هذا الفعل إلى حبس أكثر للحرارة، وقد يصاحب هذا الانقباض قشعريرة – كما هو معروف – يُنتج الجسد على إثرها كمية كبيرة من الحرارة؛ لكي تدفع عن الجسد برودة الطقس الشديدة، فُتبقى درجة حرارة الجسد ثابتة عند درجة٣٧°م[2].

وهكذا كلما تم تناول أي عضو من الأعضاء، فسيظهر التوازن والتقدير ماثلا في عمله وأدائه وخلقه، وسيصل الشخص في النهاية إلى حقيقة قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[3].

إن هذا التوازن البديع في خلق الأعضاء ليس مقصورا على الإنسان وحده، بل هو شامل لجميع الكائنات الحية، فكل كائن حي تعمل أجهزته وأعضاؤه بانتظام وتناسق، وذلك وفق تقدير محسوب يستحيل معه أن يكون هناك أدنى خلل في عمل عضو من أعضاء بدنه، ولو أُفتُرِض حدوث خلل ما في أداء عضو من الأعضاء، فإن الإعاقة أو التشوه الخلقي سيظهران على إثر ذلك نتيجة لذلك الخلل، بل ولاستحالت الحياة كليا لهذا الكائن إذا كان الخلل كبيرا، أو كان في عضو مسئول عن تنظيم عمل أجهزة الجسد.

---

(1) د.رمزي الناجي، د.عصام الصفدي: علم وظائف الأعضاء. مرجع سابق، (ص١٨٤).

(2) الان إ . نورس: جسم الإنسان. بتصرف، مرجع سابق، (ص٣٨، ٣٩).

(3) سورة الفرقان، الآية ٢.

الفصل الثاني
التوازن التشريعي

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: التوازن في العقيدة.

المبحث الثاني: التوازن في العبادات.

المبحث الثالث: التوازن في المعاملات.

المبحث الرابع: التوازن في الأخلاق.

المبحث الخامس: التوازن التشريعي في التكليف.

المبحث الأول

التوازن في العقيدة

تناول القرآن الكريم مفهوم الاعتقاد بصورة واضحة، فظهرت حقيقة التوازن فيه بإرشاد القرآن إلى الصواب منه والتأكيد عليه، وبالمقابل ضلال من يعتقد خلاف ذلك، وبعده عن الصراط المستقيم. وحتى يتضح هذا الأمر فإن الباحث سيتناوله كما يلي:

أولا: التوازن في توحيد الله وأسمائه وصفاته:

يتضح التوازن في عقيدة هذه الأمة من خلال استقامتها على منهج القرآن الكريم الذي بين صحة ما تعتقده في الخالق سبحانه وتعالى، فاستحقت على إثر ذلك أن وصفها الله تعالى بالأمة الوسط، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1]، حيث لا يخفى ما في هذا الوصف من دلالة على التوازن في الاعتقاد الذي نفى عنها الميل والانحراف، فلم تقع في الشرك الذي وقعت فيه الأمم الأخرى، بل وقفت عند الحق الذي وصف الله به نفسه كما أخبرت عن ذلك رسله، فأفردته بتوحيد الإلوهية والربوبية، فلا إله غيره، ولا رب سواه، قال تعالى:﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2]، وقال تعالى:﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

(2) سورة غافر، الآية ٦٥.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1]، وأفردته بالعبادة من غير شرك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[2].

فصاروا بهذا وسطا متوازنا بين من كفر فأنكر وجود الله مطلقا، وبين من أشرك معه غيره من المخلوقات فعبدها، كما فعل عُبّاد الأصنام من مشركي العرب الذين قال الله عن شركهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[3]، وكما فعل النصارى الذين جعلوا المسيح ابن مريم إلها، فقال الله عن كفرهم هذا: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾[4]، أو كما فعل اليهود والنصارى مع أحبارهم ورهبانهم الذين رفعوهم إلى مرتبة التقديس، فقبلوا منهم ما أحلوه وما حرموه مما لم يأذن به الله، كما في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[5]، وقد جاء في هذا عن عَدِيّ بن حَاتِمٍ[6] -ﷺ- قال: أَتَيْتُ النبي -ﷺ- وفي عُنُقِي صَلِيبٌ من ذَهَبٍ، فقال: " يا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هذا الْوَثَنَ. وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ في سُورَةِ بَرَاءَةٌ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال: أَمَا إِنَّهُمْ لم يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إذا أَحَلُّوا لهم شيئا اسْتَحَلُّوهُ، وإذا حَرَّمُوا عليهم شيئا حَرَّمُوهُ "[7].

ويزداد التوازن في اعتقاد المسلمين في المعبود وضوحا بجعل إفراده بالإلوهية والربوبية والعبادة، هي الكلمة السواء التي يجب أن يجتمع عليها مع المسلمين من يريد

---

(1) سورة الأنعام، الآية ١٠٢.

(2) سورة التوبة، الآية ٣١.

(3) سورة الزمر، الآية ٣.

(4) سورة المائدة، الآية ١٧.

(5) سورة التوبة، الآية ٣١.

(6) هو عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي الجواد بن الجواد، أسلم سنة سبع، روى عنه الشعبي وأبو إسحاق وسعيد بن جبير، نزل قرقيسيا منعزلا، مات سنة ٦٨هـ عن مائة وعشرين سنة. أنظر: الذهبي: الكاشف. مرجع سابق، (ج٢، ص١٥).

(7) أخرجه الترمذي في سننه. مرجع سابق، (ج٥، ص٢٧٨، حديث رقم: ٣٠٩٥)، وقال: هذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إلا من حديث عبد السَّلامِ بن حَرْبٍ، وَغُطَيْفُ بن أَعْيَنَ ليس بِمَعْرُوفٍ في الحديث.

الحق من طائفتي اليهود والنصارى، فهي نقطة العدل والتوسط؛ لأن ذلك مما أجمعت عليه الرسل والكتب السماوية كلها، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1].

ومن توازن الأمة واعتدالها في باب الأسماء والصفات إصابتها للحق في وصف الخالق من غير تجاوز في ذلك، فهي تصفه بما وصف به نفسه من الصفات العلى التي لا يشابهه فيها أحد من خلقه، فهو ذو الجلال والكمال المطلق. وتنزهه عن العيوب والنقائص مطلقا، فهو تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2]، وأيضا: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ ﴾[3]،

وتسميه بما سمى نفسه من الأسماء الحسنى فلا تدعوه بغيرها، فهي تمتثل أمره في ذلك من غير إلحاد، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾[4].

وتنزهه عن نسبة الولد والوالد والصاحبة، قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾[5]، وقال: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾[6]، وقال: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾[7]، وقال: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ ﴾[8]، فلم تقع الأمة فيما وقع فيه غيرها من الأمم في الضلال، كاليهود الذين جعلوا عزيرا

---

(1) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

(2) سورة الشورى، الآية ١١.

(3) سورة الإخلاص، الآية ٤.

(4) سورة الأعراف، الآية ١٨٠.

(5) سورة الأنعام، الآية ١٠١.

(6) سورة المؤمنون، الآية ٩١.

(7) سورة مريم، الآية ٣٥.

(8) سورة الإخلاص، الآية ٣.

ابن الله، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾[1]، أو النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾[2].

فظهر بهذا أن الحق المبين والصراط المستقيم هو ما هدى الله إليه المسلمين في القرآن الكريم، وهو الطريق الوسط المجافي لطريقي أهل الغضب والضلال اليهود والنصارى، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾[3]، فقد نفوا عن الخالق الاتصاف بخصائص المخلوق ونقائصه ومعايبه، ولم يجعلوا المخلوق متصفا بخصائص الخالق– سبحانه– التي لا يشبهه منها شيء. فصاروا بهذا وسطا متوازنا بين أهل التشبيه والتمثيل. وبين أهل الجحود والتعطيل؛ ذلك لأن في قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ رد على الممثلة. وفي قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ رد على المعطلة.

فقررت الآية حقيقة التوازن في الاعتقاد بصفات الخالق جل وعلا، إذ منعت الجنوح في ذلك إلى التمثيل، ومنعت في المقابل الجنوح إلى التعطيل، وقررت بين ذلك أن له صفات لا يشبهه فيها أحد من خلقه.

ثانيا: التوازن في الاعتقاد بالملائكة:

لا يخرج اعتقاد الأمة بالملائكة عن الاعتدال والتوازن؛ ذلك لأن إيمانها بملائكة الله تعالى قائم على ما ثبت الإخبار عنه بالكتاب والسنة، فالوحي هو المصدر الوحيد في استقاء المعرفة عن الملائكة؛ لأنها مخلوقات غيبية لا قدرة للعقل عن الإحاطة بها، فالإيمان بوجودهم ركن من أركان الإيمان، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ ﴾[4]، والاعتقاد بأنهم مخلوقون من نور، كما جاء عن عَائِشَةَ– رضي الله عنها– قالت: قال رسول اللَّهِ –ﷺ–: "خُلِقَتْ الْمَلاَئِكَةُ من

---

(1) سورة التوبة، الآية ٣٠.

(2) سورة التوبة، الآية ٣٠.

(3) سورة الفاتحة، الآية ٦,٧.

(4) سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

نُورٍ..."[1]، وأن الله خلقهم قبل آدم أبو البشر، كما في قوله: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾[2]، وأنهم يمتثلون أمر الله ولا يعصونه، كما قال تعالى: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[3]، وأنهم منقطعون لعبادة الله، كما قال سبحانه: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[4]، وأن لهم القدرة على التشكل على غير صورهم، كما في الآية: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾[5]، وأن لهم أجنحة متعددة ومتفاوتة، كما في قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾[6]، وأنهم موكلون برعاية القوانين والأسباب في الكون، كما قال الله عن بعض فآتهم وطوائفهم: ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾[7]، وقال: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾[8]، وأن أصنافهم كثيرة فلا يعلم عددهم إلا الله، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾[9]، وأن لبعضهم أسماء كما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كأمين الوحي جبريل، وميكائيل الموكل بالقطر، وإسرافيل الموكل بالنفخ في الصور، ومالك خازن النار، وملك الموت الموكل بقبض الأنفس، وبحملة العرش الثمانية...، ولا يمكن لعقل بشر أن يحيط معرفةً بهذه الأمور.

فيتبين بهذا توازن الاعتقاد في الأمة المسلمة في تلقيها صحة الخبر عن الملائكة من طريق الوحي، إذ هو الطريق الحق الذي يمثل الخروج عنه ميل وزيغ، وخرافات وأباطيل تفتقد إلى الدليل وتصادم العقل؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يخبر بحقيقة مصنوع ما لم يكن مصدر خبره من قبل صانعه ! وكذلك الخبر عن الملائكة.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٢٩٤، حديث رقم: ٢٩٩٦).

(2) سورة ص، الآية ٧١.

(3) سورة التحريم، الآية ٦.

(4) سورة الأنبياء، الآية ٢٠.

(5) سورة مريم، الآية ١٧.

(6) سورة فاطر، الآية ١.

(7) سورة الذاريات، الآية ٤.

(8) سورة النازعات، الآية ٥.

(9) سورة المدثر، الآية ٣١.

ولذلك يظهر الاعتدال بجلاء في صحة اعتقاد هذه الأمة بالملائكة عندما نرى فساد اعتقاد اليهود في عداوتهم لجبريل-عليه السلام- حيث قال الله عن ذلك: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾[1]، وقد رد الله على هذه العداوة بقوله: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2]،قال الطبري في تأويل الآية: «أجمع أهل العلم بالتأويل جميعا على أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بني إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولي لهم»[3].

فظهر بهذا أن الاعتقاد بالملائكة وفقا لما بينه القرآن الكريم هو المنهج المتوازن الذي لم يتطرف إلى معاداة الملائكة وبغضهم والحط من شأنهم، كما ذكر الله ذلك عن اليهود آنفا، ولم يقر ما وقع فيه المشركون من وصفهم بأنهم إناث، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾[4]، بل رد العلم بهم إلى خبر الوحي، وشنع على من خاض في الكلام عليهم بما ليس له به علم، فقال: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾.

قال النسفي: «وهذا تهكم بهم. يعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم، فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك. ولا تطرقوا إليه باستدلال، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم، ولم يشاهدوا خلقهم حتى يخبروا عن المشاهدة»[5].

ولهذا جاءت اعتقادات الأمة على إثر هذه التوجيهات القرآنية متوازنة لموافقتها للحق الذي بينه لها كتاب ربها، فكانت وسطا بين من افترى الكذب بوصفهم بما ليس فيهم، وبين من أنكر وجودهم ونفى أفعالهم في تسيير سنن الكون المختلفة، كما هو حال الملحدين في زماننا هذا، فلم يصطدم اعتقادهم بنصوص الوحي فيردوها، ولم يقحموا العقل في معرفة غيب لا قدرة له على معرفته فيضل السبيل.

---

(1) سورة البقرة، الآية ٩٨.

(2) سورة البقرة، الآية ٩٧.

(3) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١، ص٤٣١).

(4) سورة الزخرف، الآية ١٩.

(5) النسفي: تفسير النسفي. مرجع سابق، (ج٤، ص١١١).

ثالثا: التوازن في الاعتقاد بالكتب السماوية:

من المعلوم أن التوازن في الاعتقاد في الكتب السماوية يجب أن يكون وفقا لما تحتويه من حق، ووفقا لحقيقة ما يجب أن تكون عليه من بعد عن التحريف أو التبديل أو الخطأ الذي لا يمكن أن يصدر عن الله تعالى؛ لأن التصديق بكتاب ما أنه كتاب الله، يعني: أن نصوصه هي كلام الله المنزلة على البشر من دون أدنى تحريف أو تبديل فيها. وهذا هو ما يتضح في اعتقاد المسلم بالكتب السماوية من خلال ما يستمده من وضوح المنهجية التي رسمها له القرآن الكريم في ذلك. فقد وضع القرآن الكريم معايير دقيقة لبيان صدق صلة نصوص هذه الكتب بالله من عدمها. وهي منهجية عادلة يسلم بها كل عاقل، ولا يردها إلا جاحد معاند، وهي كالتالي:

١. أن كلام الله تعالى لا يمكن أن يكون بينه اختلاف أو تناقض أو خطأ، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[١]، وهذا الأمر الذي ذكره القرآن الكريم ليدلل به على صحة نسبته إلى الله تعالى يمثل معيارا دقيقا لمحاكمة أي كتاب يُدّعى نسبته إلى الله تعالى.

٢. أن كلام الله لا يتصادم مع الحقائق العلمية الثابتة، ولا مع ما أخبر به من وقائع غيبية سالفة أو آتية، وقد ذكر القرآن الكريم هذا المعيار في قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ ﴾[٢]، وفي قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾[٣]، قال الشوكاني: «أي سنريهم دلالات صدق القرآن وعلامات كونه من عند الله فى الآفاق، وفي أنفسهم »[٤].

فالحقائق العلمية والوقائع الغيبية آيات يُطلع الله بها عباده ليستيقنوا بها صدق ما أنزله إليهم مما لم ينزله ونسب إليه كذبا، ولذلك قال سبحانه: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

---

(١) سورة النساء، الآية ٨٢.

(٢) سورة النمل، الآية ٩٣.

(٣) سورة فصلت، الآية ٥٣.

(٤) الشوكاني: فتح القدير. (ج٤، ص٥٢٣)، وانظر: البيضاوي: تفسير البيضاوي. (ج٥، ص١٢٠)، والسمعاني: تفسير القرآن. مراجع سابقة، (ج٥، ص٦١).

﴾[1]، وقال جل من قائل:﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ ﴾[2]، وقد أورد الطبري في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن عباس-ﷺ-قال: دخل على رسول الله-ﷺ- جماعة من يهود فقال لهم:" إنى والله أعلم أنكم لتعلمون أنى رسول الله. فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله:﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ ﴾"[3]،

قال الآلوسي: «المعنى: أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله إليك لقيامك فيه بالحق ودعائك الناس إليه»[4]

وقال ابن كثير في تفسيره: «أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى...، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل...»[5].

فإذا ثبت في أي كتاب خلاف ما أخبر به، فإن نسبة الكلام المنسوب إلى الله في هذه الكتب يكون باطلا وكذبا، وهذا معيار عادل لبيان صحة نسبة هذه الكتب إلى الله.

٣. أن مصدر الكتب السماوية هو الله تعالى، وبالتالي فلا يمكن أن تكذّب بعضها بعضا، بل يجب أن تتفق جميعا في الدعوة إلى توحيد الله في إلوهيته، وربوبيته، وأسمائه، وصفاته، وتدعوا للهدى، وتبين التحريف المنسوب إلى الكتب السابقة من قبل البشر.

ووفق هذه المعايير يتبين أن القرآن هو كتاب الله تعالى الذي اجتمعت فيه المعايير جميعا، فلا اختلاف ولا تناقض بين آياته وان تعددت وتفرقت في صفحاته المختلفة، بل كلما تم جمع الآيات المتفرقة ذات الموضوع الواحد، تجلى البيان أكثر.

والقرآن الكريم أيضا هو الكتاب الوحيد الذي أثبتت الحقائق العلمية المكتشفة صدق ما أخبر به من علوم وغيوب ماضية وآتية، وقد بينت كتب الإعجاز العلمي ذلك.

كما أن القرآن لم يجحد نزول الكتب السماوية السابقة، بل صدق بنزولها كلها، كتصديقه بنزول التوراة والإنجيل، قال تعالى:﴿ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ ﴾[6]، وتصديقه بالزبور، كما في قوله:﴿ وَءَاتَيۡنَا

---

(1) سورة الأنعام، الآية ٦٧.

(2) سورة النساء، الآية ١٦٦.

(3) الطبري: جامع البيان: مرجع سابق، (ج٦، ص٣١).

(4) الآلوسي: روح المعاني: مرجع سابق، (ج٦، ص١٩).

(5) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج١، ص٥٩٠).

(6) سورة المائدة، الآية ٤٦.

دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[1]، وتصديقه بالصحف، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[2]، وتصديقه الإجمالي بكل الكتب السالفة من غير تسميته لأي منها، قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[3]، لكنه في الوقت نفسه بين أن هذه الكتب قد تعرضت للتحريف والتبديل، والزيادة والنقص لتتوافق مع أهواء محرفيها، كفعل اليهود في التوراة، قال الله عن ذلك: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[4]، وفعل النصارى في الإنجيل الذي صار أناجيل متعددة.

فقد أمرت الكنيسة بحذف وإلغاء باقي الأناجيل فيما عدا الأناجيل الأربعة، وهي إنجيل متى، وإنجيل لوقا، وإنجيل مرقس، وإنجيل يوحنا، وهذه صورة واضحة تبين فداحة التحريف في هذه الكتب[5].

وبالنظر إلى وضعية الكتب السماوية السابقة وما طالها من التحريف، فإن هيمنة القرآن الكريم على ما سبقه منها ببيان ما فيها من الحق، وإبطال ما فيها من الباطل يمثل عدلا وتوازنا يُسَلّم به كل منصف بعد ما صح ثبوت نسبة هذا الكتاب إلى الله تعالى؛ لأن مصدرها جميعا هو الله تعالى، وهذا هو ما ذكره القرآن في قوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾[6].

بل إن المنهجية التي بينها النبي-ﷺ- في التعامل مع ما يُحدِّث به أهل الكتاب مما لم يرد له معارض في الكتاب والسنة، كما في قوله-ﷺ-: "مَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلا تُصَدِّقُوهُمْ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ

---

(1) سورة الإسراء، الآية ٥٥.

(2) سورة الأعلى، الآية ١٨، ١٩.

(3) سورة البقرة، الآية ٢١٣.

(4) سورة النساء، الآية ٤٦.

(5) د. موريس بوكاي: التوراة والأناجيل والقرآن الكريم. بتصرف، مرجع سابق، (ص٢٥).

(6) سورة المائدة، الآية ٤٨.

تُكَذِّبُوهُمْ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلا لَمْ تُصَدِّقُوهُمْ..." [1]، تمثل توازنا دقيقا يوضح اعتقاد المسلم في التعامل مع نصوص هذه الكتب، ويُظهر التوازن والاعتدال في المنهج الإسلامي الذي لم يجحد الحق بتكذيب ما سواه من الكتب السماوية المنزلة، بل أوجب الإيمان بها جميعا. ولم يقر في الوقت نفسه بسلامتها من التحريف والتبديل، بل أخبر بوقوعه فيها، وبين بأن الحق يكمن في اتباع ما جاء به.

فصار المسلم بهذا متزن الاعتقاد في كتب الله المنزلة لملازمته للحق الذي لا يشوبه باطل مما قرره الوحي، مبتعدا بذلك عن ما وقع فيه أهل الكتاب من تحريف ما قرر القرآن تحريفه، أو قرر العلم الحديث بما لا يدع مجالا للشك بطلانه؛ لأنه لا يمكن لحقيقة علمية قطعية أن تصادم نصا شرعيا قطعي الدلالة والثبوت؛ لأن الذي وضع الأسرار في الكون هو الذي أخبر عنها.

رابعا: التوازن في الاعتقاد بالأنبياء والرسل:

تناول القرآن الكريم التوازن في جانب الاعتقاد بالأنبياء والرسل بأن أعطاهم المكانة التي أعطاها الله لهم من دون تجاوز في ذلك، فقد أوجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل من دون تفريق بين أحد منهم، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[3].

فابتعد بهذا عن التفريط بالتفريق بين أنبياء الله ورسله، كما هو الحال في اعتقاد اليهود والنصارى في الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه: (ج٣، ص٣١٨، حديث رقم: ٣٦٤٤)، وابن حبان في صحيحه من حديث نملة بن أبي نملة الأنصاري. (ج١٤، ص١٥١، حديث رقم: ٦٢٥٧)، ، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة، مراجع سابقة، (ج٦، ص٣٠٣، حديث رقم: ٢٨٠٠).

(2) سورة النساء، الآية ١٥٢.

(3) سورة البقرة، الآية ١٣٦.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾[1].

فاليهود آمنوا بموسى وبجميع من سبقه من الأنبياء والرسل على زعمهم، وكفروا بعيسى وبمحمد عليهما الصلاة والسلام.

والنصارى آمنوا بعيسى وبجميع من سبقه من الأنبياء والرسل على زعمهم، وكفروا بمحمد ﷺ.

ووافق المسلمون الحق والعدل فآمنوا بهم جميعا.

وتوازنت منهجية القرآن الكريم في بيان الحق في الأنبياء والرسل، فشنت حملة شعواء على من أفرط في تقديسهم فأخرجهم عن طبيعتهم البشرية وجعلهم آلهة يعبدون، كاعتقاد النصارى في عيسى عليه السلام أنه الله، كما قال الله عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[2]، وكذا اعتقادهم أنه ابن الله، كما في قوله: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾[3].

وشنت في الوقت نفسه حملة أخرى مقابلة على من حطَّ من شأنهم أو استنقص من قدرهم فكذبهم أو رماهم بالتهم والرزايا التي تقدح في نبوتهم وذواتهم، كحال بني إسرائيل في تكذيبهم وقتلهم لبعض أنبيائهم ورسلهم، واستنقاصهم للبعض الآخر، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[4].

قال ابن كثير: «إنما لم يقل وفريقا قتلتم؛ لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضا؛ لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ...»[5]، فقد ورد عن أَنَسِ بن مَالِكٍ -رضي الله عنه- " أَنَّ يَهُودِيَّةً أَتَتْ النبي -ﷺ- بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ فَأَكَلَ منها، فَجِيءَ بها، فَقِيلَ: ألا نَقْتُلُهَا ! قال: لاَ. فما زِلْتُ أَعْرِفُهَا في لَهَوَاتِ رسول اللَّهِ ﷺ "[6].

---

(1) سورة النساء، الآية ١٥٠.

(2) سورة المائدة، الآية ٧٢.

(3) سورة التوبة، الآية ٣٠.

(4) سورة البقرة، الآية ٨٧.

(5) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج١، ص١٢٤).

(6) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٢، ص٩٢٣، حديث رقم: ٢٤٧٤).

ومن تنقصهم بأنبيائهم أنهم رموهم بكبائر الذنوب، فحكوا عن لوط –عليه السلام– أنه زنى بابنتيه وهو سكران، وحملتا منه بولدين هما: موآب وعمون.

وكتبوا عن سليمان–عليه السلام– أنه ختم عمره بعبادة الأصنام والسحر، وسيبت نساؤه دينه.

وأن نبوة يعقوب–عليه السلام– إنما حصلت له بأن خدع إسحق ومكر به، وإنما كانت لعيسو.

وأن داوود–عليه السلام– زنى بامرأة مؤمنة زوجة مؤمن، وأنه تحيل على زوجها حتى قتل، وقتل لقتله جماعة من المؤمنين فسر بذلك[1].

وتزامن مع شدة حملة القرآن الكريم على طرفي الاعتقاد المذموم في الأنبياء والرسل ترسيخ الحق الذي يجب اعتقاده فيهم والذي يمثل العدل والتوازن بين هذين الطرفين المذمومين، حيث أورد القرآن الكريم نصوصا تبين ثناء الله عليهم على كمال عبوديتهم له، كمدحه لنوح–عليه السلام– بقوله: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[2]، ومدحه لداوود عليه السلام بقوله: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[3]، وثنائه على أيوب–عليه السلام– بقوله: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾...﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾[4]، ووصفه لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذا الكفل – عليهم السلام – بالعباد الأخيار، كما في قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾[5]، ويؤكد على عبودية المسيح–عليه السلام– بقوله: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ﴾[6].

---

(1) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام. تحقيق د. أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، ١٣٩٨هـ، بتصرف، (ج١، ص١٩٦، ٢٠٠، ٢٠١).

(2) سورة الإسراء، الآية ٣.

(3) سورة ص، الآية ١٧.

(4) سورة ص، الآية ٤١ – ٤٤.

(5) سورة ص، الآية ٤٥ – ٤٨.

(6) سورة النساء، الآية ١٧٢.

كما يؤكد في الوقت ذاته على بشرية الرسل جميعا، فيصف محمدا -ﷺ- في القرآن الذي أنزله عليه بأنه بشر، ويأمره بأن يبين هذا الحقيقة للناس، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[1]، ويوصي -ﷺ- أمته مؤكداً هذا الأمر فيقولﷺ: "لاَ تُطْرُونِي كما أَطْرَتْ النَّصَارَى بن مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أنا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عبد اللَّهِ وَرَسُولُهُ "[2]

ويقرر القرآن بشرية جميع الرسل، ويدلل على ذلك بحاجتهم إلى الأكل والشرب، ومشيهم في الأسواق مثل عامة البشر، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[3].

ولم يرد في الشرع الحكيم انتقاص لأحد من رسل الله أو قدح في رسالته، وإنما ورد تقريبهم جميعا، ونفي كل ما يقدح في ذواتهم ونبوتهم ورسالتهم، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[4].

وأخبر الله عن موسى-عليه السلام- بقوله: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[5]، وعن جميع الرسل- عليهم السلام- بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾[6].

فظهر بهذا التوازن والاعتدال في منهجية القرآن الكريم في بيانه للحق الذي يجب اعتقاده في أنبياء الله ورسله عموما.

خامسا: التوازن في الاعتقاد باليوم الآخر:

---

(1) سورة الكهف، الآية ١١٠.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٣، ص١٢٧١، حديث رقم: ٣٢٦١).

(3) سورة الفرقان، الآية ٢٠.

(4) سورة آل عمران، الآية ٣٣، ٣٤.

(5) سورة طه، الآية ٣٩.

(6) سورة الحج، الآية ٧٥.

لما كان حال الناس في الإيمان باليوم الآخر هو الافتراق ما بين صنف مكذب بوقوعه مطلقا، كحال الملحدين المنكرين للبعث والمعاد؛ لإنكارهم لوجود خالق للكون أصلا، وكحال مشركي العرب الذي قال الله عن تكذيبهم للبعث: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1].

وصنف مقر بحشر الأرواح والأجساد مع إنكار حقيقة الأكل والشرب والنكاح في الجنة، وأن المتاع عندهم إنما يكون بالأصوات المطربة، كحال طوائف من اليهود والنصارى، وصنف آخر مقر بحشر الأرواح فقط وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط، كما هو حال طوائف من الصابئة والفلاسفة[2].

يتبين أن الحق والعدل هو ما بينه القرآن الكريم من معاد الأرواح والأجساد جميعا، وأن أنواع اللذات في الجنة ثابتة للأجساد والأرواح معا، وشاملة لمختلف حواس البدن من السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وكذلك العذاب في النار يقع على الروح والبدن جميعا، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾[3]، فدل تبديل الجلود، وإذاقة العذاب أنه للبدن والروح جميعا.

وقد سلك القرآن الكريم في ترسيخ المعاد وإحياء الأرواح والأجساد بعد الموت منهجا عقليا متزنا مستندا في ذلك للأدلة والبراهين الثابتة التي من شأنها إيجاد قناعة يقينية في نفوس المنكرين له بحقيقة وقوعه، ومن ذلك ما يلي:

---

(1) سورة المؤمنون، الآية ٨٢، ٨٣.

(2) ابن تيمية: مجموع الفتاوى. بتصرف، مرجع سابق، (ج٤، ص٣١٣، ٣١٤).

(3) سورة النساء، الآية ٥٦.

١. الاستدلال بالنشأة الأولى على هوان إعادة النشأة الأخرى، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾[١]، وقال تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٢].

٢. الدعوة إلى السير في الأرض والنظر في كيفية بدء خلق الأشياء من العدم ليستدل بذلك على أن إعادة النشأة بعد زوالها ليس بأعظم من ابتداءها من العدم، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾[٣].

٣. القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما هو دونه، قال تعالى:﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾[٤]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾[٥].

٤. الاستدلال بإحياء الأرض الميتة على إحياء الموتى، قال تعالى:﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٦].

٥. الاستدلال على قدرة الخالق على إحياء الموتى بإخراج النبات من الحب والنوى الميت، وإخراج الحيوانات من النطف، والعكس، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾[٧]، وقال سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[٨].

---

(١) سورة مريم، الآية ٦٧.

(٢) سورة الروم، الآية ٢٧.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٢٠.

(٤) سورة يس، الآية ٨١.

(٥) سورة الأحقاف، الآية ٣٣.

(٦) سورة الروم، الآية ٥٠.

(٧) سورة الأنعام، الآية ٩٥.

(٨) سورة البقرة، الآية ٢٨.

٦. الاستدلال على إحياء الموتى في الآخرة بإحياء بعض الأموات في الحياة الدنيا، كإحياء الله لقوم موسى الذين ماتوا صعقا عندما طلبوا أن يروا الله جهرة، قال الله ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1].

٧. ويستدل كذلك على قدرة الله بإحياء الموتى بتمكين بعض رسله من البشر بإحياء موتى في الدنيا بإذنه، كما حدث مع نبي الله إبراهيم -عليه السلام- الذي طلب من الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى، فأراه الله ذلك في الطيور الأربعة التي أمره بذبحهن، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾[2]، وكما حدث مع عيسى -عليه السلام- الذي أيده الله تعالى بمعجزة إحياء الموتى، كما قال الله عن ذلك: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾[3].

وبهذا يتضح التوازن والاعتدال في تناول القرآن الكريم للاعتقاد باليوم الآخر من خلال ما أقامه من استدلالات مسلَّمة عند جميع العقلاء تبين قطعية وقوعه وترد على المنكرين له بأوضح بيان وأقوى حجة بعيدا عن التخرصات والتكهنات التي لا تمت إلى الحق بصلة.

سادسا: التوازن في الاعتقاد في القضاء والقدر:

لقد بين القرآن الكريم الحق والصواب في الاعتقاد بقضاء الله تعالى وقدره، وقد ورد في بيانه العديد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[4]، وقوله:

---

(١) سورة البقرة، الآية ٥٥، ٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٦٠.

(٣) سورة المائدة، الآية ١١٠.

(٤) سورة القمر، الآية ٤٩.

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[1]، وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[2]،«فهو نافذ مفعول لا يقف في وجهه شيء ولا أحد. وهو مقدر بحكمة، وخبرة، ووزن. منظور فيه إلى الغاية التي يريدها الله منه، ويعلم ضرورتها وقدرها وزمانها ومكانها»[3].

وكما أن المصائب مقدرة، فكذلك قد يكون تقديرها مرتبط بفعل السيئات، كما قال سبحانه:﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ [4].

قال أبو السعود في تأويل قوله: «﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾، أي بلية من البلايا، ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾، أي فهي منها بسبب اقترافها المعاصي الموجبة لها وإن كانت من حيث الإيجاد منتسبة إليه –تعالى– نازلة من عنده عقوبة، كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[5]»[6].

فَعُلم بهذا «أن تقدير الخير والشر من الله تعالى. وفعل الخير والشر من العبد. والعبد مختار في فعله اختيار تمييز وتحصيل لا اختيار مشيئة وقدرة. والعبد مخاطب بمراعاة الأمر والنهي. وبالنظر إلى القضاء والقدر فيحصل له الخوف والرجاء والاجتهاد والرغبة. وهو غير مسئول في جانب القضاء والقدر ليثاب ويعاقب، بل هو مسئول في جانب الأمر والنهي للثواب والعقاب»[7].

ولذلك فلا شيء يخرج عن التقدير، سواء كان ذلك فيما قد وقع، أو كان ذلك فيما سيقع، فقد جاء في حديث جبريل –عليه السلام– في سؤاله لرسول الله –ﷺ– بقوله: "... يا رَسُولَ اللَّهِ. ما الإِيمَانُ؟ قال: ...، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ، قال: صَدَقْتَ... "[8]، و جاء عن

---

(1) سورة الفرقان، الآية ٢.

(2) سورة الأحزاب، الآية ٣٨.

(3) سيد قطب: في ظلال القرآن الكريم. مرجع سابق، (ج٥، ص٢٨٧٠).

(4) سورة النساء، الآية ٧٩.

(5) سورة الشورى، الآية ٣٠.

(6) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. (ج٢، ص٢٠٦)، وانظر: الواحدي: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. (ج١، ص٢٧٧)، والبغوي: معالم التنزيل. مراجع سابقة، (ج١، ص٤٥٤).

(7) جمال الدين أحمد بن محمد الغزنوي الحنفي: كتاب أصول الدين، تحقيق: د.عمر وفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامية، بيروت – لبنان، ط ١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، (ج١، ص١٨٩).

(8) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة. مرجع سابق، (ج١، ص٤٠، حديث رقم: ١٠).

عبد اللَّهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ[1] -ﷺ- قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يقول: "كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قبل أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ..."[2]، و-أيضا- عن عَبْدَ اللَّهِ بن عُمَرَ- رضي الله عنهما- قال: قال رسول-ﷺ-: " كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حتى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ أو الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ"[3]، وما ورد كذلك عن عُبَادَةُ بن الصَّامِتِ[4] -ﷺ- أنه قال لابْنِهِ: يا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ حتى تَعْلَمَ أَنَّ ما أَصَابَكَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وما أَخْطَأَكَ لم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ سمعت رَسُولَ اللَّهِ-ﷺ- يقول: "إِنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ الله الْقَلَمَ، فقال له: اكْتُبْ. قال: رَبِّ ! وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ قال: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كل شَيْءٍ حتى تَقُومَ السَّاعَةُ. يا بُنَيَّ إني سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: من مَاتَ على غَيْرِ هذا فَلَيْسَ مِنِّي"[5].

وقد عُلِم أيضا من خلال النظر والتأمل والبحث والتدقيق في مجالات العلوم الكونية المختلفة أن كل شيء في الوجود قد قدِّر وضعه وقدِّرت وظيفته المناطة به بدقة متناهية، فدل هذا الترتيب والانتظام على علم الله السابق بمقادير الأشياء وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ودل على أن كل ما هو محدث في الكون كله، فإنما هو صادر عن علمه- سبحانه- وقدرته وإرادته، وعلى نحو ما سبق في علمه تعالى.

ولذلك يظهر التوازن جليا في القضاء والقدر أن الأشياء تتناهي إلى وفق ما قدره الله لها أن تنتهي إليه من غير زيادة ولا نقصان.

وكذلك يظهر اعتقاد المسلم المتوازن بإيمانه بالقضاء والقدر الذي لا يتعارض مع الأمر والنهي، كما رسمه له الشرع الحنيف، إذ صار بهذا وسط بين من أنكر القدر جملة فلم يؤمن به، وبين من آمن به واحتج به على إبطال الأمر والنهي.

---

(1) هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بالتصغير بن سعد بن سهم السهمي أبو محمد، وقيل: أبو عبد الرحمن، أحد السابقين المكثرين من الصحابة، وأحد العبادلة الفقهاء، مات في ذي الحجة ليالي الحرة على الأصح بالطائف على الراجح. أنظر: ابن حجر: تقريب التهذيب. مرجع سابق، (ج١، ص٣١٥).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٠٤٤، حديث رقم: ٢٦٥٣).

(3) المرجع نفسه. (ج٤، ص٢٠٤٥، حديث رقم: ٢٦٥٥).

(4) هو عبادة بن الصامت أبو الوليد الخزرجي، من بني عمرو بن عوف، بدري، نقيب، وهو أحد من جمع القرآن، وكان طويلا، وجسيما، وجميلا، مات بالرملة سنة ٣٤هـ، وله اثنان وسبعون عاما. أنظر: الذهبي: الكاشف. مرجع سابق، (ج١، ص٥٣٣).

(5) أخرجه أبو داود في سننه. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٢٥، حديث رقم: ٤٧٠٠)، وصححه محمد ناصر الدين الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم. المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، (ج١، ص٤١، حديث رقم: ١٠٢).

وعلى هذا فليس يصح لأحد أن يحتج بالقضاء والقدر على تفريطه وعصيانه؛ لأن فعل الطاعات والمعاصي من الأفعال الاختيارية التي هي في نطاق قدرة العباد وسعتهم، وحال هؤلاء الذين يتذرعون بالقضاء والقدر ليبرروا اعوجاجهم، كحال طالب مفرط فشل في دراسته، فبرر فشله بكتابة أستاذه لاسمه على ورقة وضع فيها تنبؤه بالفاشلين والناجحين من طلابه بحكم معرفته بهم وعلمه السابق بمستواهم العلمي قبل الاختبار، ثم صح ما تنبأ به هذا الأستاذ. فنجح من قدر نجاحه، وفشل من قدر فشله. فليس لعاقل أن يحتج بأن النجاح والفشل إنما كان بسبب ذلك الكتاب السابق، ولولا تلك الكتابة لما حدث ما حدث، وهذا باطل قطعا. بل الحق أن من اجتهد في عمل نجح فيه وتيسر له أن ينال ما قصده من وراء ذلك العمل. وكذلك فعل الطاعات والمعاصي. وقد قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾[1]، فيظهر بهذا من مدلول الآية أن فعل الخير يهيئ صاحبه للمداومة عليه، وكذلك فعل الشر يهيئ صاحبه للمداومة عليه أيضا، وكل ميسر لما خلق له.

المبحث الثاني

التوازن في العبادات

أولاً: التوازن بين رفع الصوت وخفضه في العبادات القولية:

يقرر القرآن الكريم في أداء العبادات منهجية متوازنة، حيث أرشد إلى سلوك الطريقة المعتدلة في نطق القراءة أو الدعاء أو الأذكار، والتي تتضمن الاعتدال بين شدة الجهر، وشدة المخافتة، كما جاء ذلك في قوله تعالى:﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١١٠ ﴾[2].

---

(1) سورة الليل، الآية ٥ – ١٠.

(2) سورة الإسراء، الآية ١١٠.

قال البيضاوي في تفسيره: «﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ بقراءة صلاتك حتى تسمع المشركين، فإن ذلك يحملهم على السب واللغو فيها، ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾حتى لا تسمع من خلفك من المؤمنين، ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾بين الجهر والمخافتة سبيلا وسطا، فإن الاقتصاد في جميع الأمور محبوب»(١).

ويؤيد هذا الأمر أَنَّ النبي -ﷺ- قال لأَبِي بَكْرٍ -ﷺ-: "مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ وَأَنْتَ تَخْفِضُ من صَوْتِكَ، فقال: إني أَسْمَعْتُ من نَاجَيْتُ. قال: ارفع قَلِيلاً. وقال لِعُمَرَ: مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ وَأَنْتَ تَرْفَعُ صَوْتَكَ. قال: إني أُوقِظُ الْوَسْنَانَ، وَأَطْرُدُ الشَّيْطَانَ. قال: اخْفِضْ قَلِيلاً..." (٢).

وفي حديث ابن عَبَّاسٍ- رضي الله عنهما- زيادة بيان في هذا المعنى، فقد قال: "كانت قِرَاءَةُ النبي -ﷺ- على قَدْرِ ما يَسْمَعُهُ من في الْحُجْرَةِ وهو في الْبَيْتِ"(٣).

وبالنسبة للاعتدال والتوازن في الدعاء، فقد فسر بعض علماء التفسير معنى الصلاة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ «أن المراد بالصلاة: الدعاء، وهو قول عائشة، وأبي هريرة، ومجاهد. قوله تعالى:﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾المخافتة: الإخفاء. يقال: صوت خفيت. ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾، أي اسلك بين الجهر والمخافتة طريقا»(٤).

ويدل على عموم التوازن في النطق في سائر العبادات قوله تعالى:﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾(٥)، قال البيضاوي: «﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي

---

(١) البيضاوي: تفسير البيضاوي. (ج٣، ص٤٧٢)، وانظر: الجصاص: أحكام القرآن. مرجعان سابقان، (ج٥، ص٣٨، ٣٩).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه من حديث أبي قَتَادَةَ: (ج٢، ص٣٠٩، حديث رقم: ٤٤٧)، وقال عنه: هذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ وَإِنَّمَا أسنده يحيى بن إسحاق عن حَمَّادِ بن سَلَمَةَ، وَأَكْثَرُ الناس إنما رَوَوْا هذا الحديث عن ثَابِتٍ عن عبد اللَّهِ بن رَبَاحٍ مُرْسَلاً، وقد صححه الألباني في مشكاة المصابيح. مرجعان سابقان، (ج١، ص٢٦٧، حديث رقم: ١٢٠٤)، [١٧].

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: (ج٢، ص٣٧، حديث رقم: ١٣٢٧)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح، = = مرجعان سابقان، (ج١، ص٢٦٦، حديث رقم: ١٢٠٣)، [١٦].

(٤) ابن الجوزي: زاد المسير. مرجع سابق، (ج٥، ص١٠١).

(٥) الأعراف: الآية ٢٠٥.

نَفْسِكَ ﴾: عام في الأذكار من القراءة والدعاء وغيرهما،...﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ متضرعا وخائفا. ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾، ومتكلما كلاما فوق السر ودون الجهر، فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص»[1].

بل أرشد الشرع الحكيم إلى التوازن في سائر نطق الإنسان، وقبح رفع الصوت فوق الحاجة حتى قرنه بصوت الحمار في وحشيته، قال سبحانه: ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾[2].

قال الشوكاني: «﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾، أي انقص منه واخفضه ولا تتكلف رفعه، فإن الجهر بأكثر من الحاجة يؤذي السامع، وجملة: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ تعليل للأمر بالغض من الصوت، أي أوحشها وأقبحها»[3].

ومما سبق يتبين التوازن الذي قرره الشرع الحكيم، فقد أمر بعدم التكلف في رفع الصوت زيادة عن الحاجة، ونهى في المقابل عن المخافتة التي لا تُسمع، وأرشد إلى الاعتدال بينهما بقصر النطق على القدر المطلوب للإسماع الذي لا يجهد النفس بسبب التكلف، ولا يؤذي المستمع من الناس برفع الصوت أو خفضه.

ثانيا: التوازن في مزاولة العبادات:

يقرر الشارع الحكيم التوازن في مزاولة العبادات، فيراعي في ذلك طاقات الناس وقدراتهم المختلفة والمتباينة، فينهى عن المبالغة والتطويل الذي يشق على الناس وينفرهم، ويمنع في المقابل من التقصير المخل بها، ويتخذ بين ذلك سبيلا، وهو ما كان يفعله رسول الله -ﷺ- ويوجه به أصحابه أن يفعلوه، فقد جاء في حديث جَابِرِ بن سَمُرَةَ[4]-رضي الله عنه- قال: "كنت أُصَلِّي مع رسول اللَّهِ-ﷺ- فَكَانَتْ صَلاتُهُ قَصْدًا، وَخُطْبَتُهُ

---

(1) البيضاوي: تفسير البيضاوي، مرجع سابق، (ج٣، ص٨٦).

(2) لقمان: الآية ١٩.

(3) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٣٩).

(4) هو جابر بن سمرة بن جنادة بن جندب بن حجير بن رئاب السوائي من سواءة، حليف بنى زهرة، كنيته أبو عبد الله، وقيل: أبو خالد، أمه خالدة بنت أبى وقاص أخت سعيد بن أبى وقاص، لأبيه سمرة صحبة، سكن الكوفة، وحديثه عندهم، وتوفى بها سنة أربع وسبعين في ولاية بشر بن مروان على العراق، وصلى عليه عمرو بن حريث. أنظر: ابن حبان: الثقات. مرجع سابق، (ج٣، ص٥٢).

قَصْدًا"[1]، «أي بين الطول الظاهر والتخفيف الماحق»[2]، وهذا دليل على مداومته –ﷺ– على ذلك في سائر صلواته المفروضة، وكذا في سائر خطبه التي خطب فيها الناس، ولا شك أن الحديث الشريف نص في الدلالة على التوازن الذي يجانب الإفراط في التطويل، ويجانب القصر المخل بأداء هذه العبادات.

بل يخبر أنس بن مالك–رضي الله عنه– عن هذا التوازن الذي يجمع بين خفة العبادة وتمامها في صلاة رسول الله–ﷺ– فيقول: "ما صَلَّيْتُ وَرَاءَ إِمَامٍ قَطُّ أَخَفَّ صَلاةً ولا أَتَمَّ من النبي –ﷺ–، وَإِنْ كان لَيَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَيُخَفِّفُ مَخَافَةَ أَنْ تُفْتَنَ أُمُّهُ"[3]، ولهذا لا يصح حمل الناس على التطويل عند إمامتهم للصلاة بهم؛ لأن فيهم من لا يقدر على احتمال ذلك. بالإضافة إلى أن في التطويل مخالفة لمنهج النبي–ﷺ– وطريقته التي أمر بها، وقد جاء في حديث جَابِرَ بن عبد اللَّهِ الأَنْصَارِيَّ–رضي الله عنه– أنه قال: " أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحَيْنِ وقد جَنَحَ اللَّيْلُ، فَوَافَقَ مُعَاذًا[4] يُصَلِّي، فَتَرَكَ نَاضِحَهُ وَأَقْبَلَ إلى مُعَاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ أو النِّسَاءِ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ. وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا نَالَ منه، فَأَتَى النبي–ﷺ– فَشَكَا إليه مُعَاذًا، فقال النبي –ﷺ–: يا مُعَاذُ! أَفَتَّانٌ أنت أو فاتن؟ ثَلاَثَ مِرَارٍ. فَلَوْلاَ صَلَّيْتَ بسبح اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إذا يَغْشَى، فإنه يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ..."[5]، فقد أنكر النبي–ﷺ– على معاذ–رضي الله عنه– التطويل في الصلاة؛ لأنه لم يُراع من لا يحتمل إطالتها من الناس، ثم أرشده إلى قراءة سور تتناسب مع ذوي الحاجات والطاقات المختلفة، وهذا دليل على الاقتصاد في العبادة.

وليس الاقتصاد مختصا بما ذكر آنفا، بل هو في سائر العبادات، فقد قدرها الشارع الحكيم على حسب الطاقة والوسع، حيث قال سبحانه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج٢، ص٥٩١، حديث رقم: ٨٦٦).

(2) النووي: شرح صحيح مسلم. مرجع سابق، (ج٦، ص١٥٣).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج١، ص٢٥٠، حديث رقم: ٦٧٦).

(4) هو معاذ بن جبل أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل، شهد بدرا مع النبي ﷺ، نزل الشام، روى عنه ابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس وغيرهم، روى عنه ابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس وغيرهم، وتوفى وهو ابن ثمان وعشرين سنة، وقيل: إحدى أو اثنتين وثلاثين سنة. = = أنظر: عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي: الجرح والتعديل. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٢٧١هـ/١٩٥٢م، (ج٨، ص٢٤٤).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج١، ص٢٤٩، حديث رقم: ٦٧٣).

﴿وُسْعَهَا﴾[1]، فابتعد بهذا عن التطويل المؤدي إلى السآمة والتنفير، وابتعد في المقابل عن التقصير المخل الذي يُخرج العبادة عن تمامها ويُفسدها، وانتهج الطريق المتوازن والمعتدل المتمثل في تخفيف العبادة مع تمامها، والتي تراعي سعة النفس والأحوال المختلفة لعموم المكلفين.

ثالثا: التوازن في العمل للدنيا والعمل للآخرة:

العبادات في الشرع الحكيم مفهومها واسع، فهي تتناول جوانب الحياة المختلفة، وقد عرفها ابن تيمية، فقال:

«العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[2].

ولم يذم الشرع الحكيم العمل للدنيا والتمتع بزهرتها، وإنما ذم الانشغال الذي يؤدي بالإنسان إلى الانقطاع عن العبادات عموما، فيفرط فيما يجب عليه أن يقوم به نحو آخرته، حيث يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾[3].

قال أبو السعود: «أي لا يشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها، والاعتناء بمصالحها، والتمتع بها عن الاشتغال بذكره -عز وجل- من الصلاة، وسائر العبادات المذكورة للمعبود»[4]، ولهذا أمر المولى -عز وجل- بمراعاة الوضع الرشيد بين العمل للدنيا والعمل لما بعد الحياة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾[5].

---

(1) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

(2) ابن تيمية: مجموع الفتاوى. مرجع سابق، (ج١٠، ص١٤٩).

(3) سورة المنافقون، الآية ٩.

(4) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. (ج٨، ص٢٥٤)، وانظر: ابن عطية: المحرر الوجيز. (ج٥، ص٣١٥)، والنسفي: تفسير النسفي. (ج٤، ص٢٤٩)، والسمرقندي: بحر العلوم. مراجع سابقة، (ج٣، ص٤٣١).

(5) سورة الحشر، الآية ١٨.

وقد جمع القرآن الكريم بين العمل للدنيا والعمل للآخرة في أكثر من موضع، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1].

فبينت الآيات أن هناك عمل وبيع قبل الصلاة، ثم صلاة وسعي إلى ذكر الله، ثم التوجيه مرة أخرى إلى السعي والعمل بعد الانتهاء من فريضة الصلاة، وهذا توازن واضح في الجمع بين عمل الدنيا وعمل الآخرة.

ويزداد الأمر وضوحا برفع الله تعالى للحرج عن متاجرة الحاج في أيام الحج، حيث يقول جل شأنه: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾[2].

قال الزمخشري في تأويل قوله تعالى: ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي «عطاء منه وتفضلا وهو النفع والربح بالتجارة، وكان ناس من العرب يتأثمون أن يتجروا أيام الحج، وإذا دخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق، ويسمون من يخرج بالتجارة الداج، ويقولون: هؤلاء الداج وليسوا بالحاج، وقيل: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية يتجرون فيها في أيام الموسم وكانت معايشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثموا فرفع عنهم الجناح في ذلك وأبيح لهم. وإنما يباح ما لم يشغل عن العبادة»[3].

بل تأتي الآيات التالية لتبين تصنيف الناس في جمعهم بين الدنيا والآخرة، فتقرر رضا الله تعالى عمن طلب منه أن يجمع له بين خيريهما، قال سبحانه: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ

---

(1) سورة الجمعة، الآية ٩، ١٠.

(2) سورة البقرة، الآية ١٩٨.

(3) الزمخشري: الكشاف. مرجع سابق، (ج١، ص٢٧٢).

ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾[1].

فيلاحظ أن الآية صنفت الناس إلى قسمين: قسم يريد الدنيا فقط وما له في الآخرة من خلاق، وقسم يريد سعادة الدنيا والآخرة، وهم القائلون: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾، ولم يذكر القرآن القسم الثالث، وهم من يريد الآخرة فقط؛ لأن هذا قسم نادر لا يكاد يوجد.

وجاءت دلالة التوازن واضحة في هذا الجانب في قيل قوم قارون لقارون، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[2].

فظهر بهذا التوازن في الجمع بين العمل للدنيا والعمل للآخرة في شرع الله الحكيم، حيث فارق بمنهجه هذا تفريط من انكب على الدنيا مخلفا الآخرة وراء ظهره، وبين من أفرط فانقطع عن الدنيا مشتغلا بالعمل للآخرة متكلا في قوام معاشه على غيره.

رابعا: التوازن بين حاجة الجسد وحاجة الروح:

لقد جاءت العديد من الآيات القرآنية لتقرر منهجية التوازن بين حاجة الجسد وحاجة الروح، فورد منها ما أباح للجسد إشباع حاجته وغرائزه التي خلقها الله تعالى فيه من الزينة وتناول الطيبات المختلفة من الرزق من غير تعد أو إسراف، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[3].

---

(1) سورة البقرة، الآية ٢٠٠- ٢٠٢.

(2) سورة القصص، الآية ٧٧.

(3) سورة الأعراف، الآية ٣١، ٣٢.

ولقد أشار ابن عطية إلى التوازن الذي قررته الآية في تناول الجسد للمباحات، والمتمثل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، فقال: «يريد في الحلال القصد. واللفظ يقتضي النهي عن السرف مطلقا، فمن تلبس بفعل حرام فتأول تلبسه به حصل من المسرفين وتوجه النهي عليه. ومن تلبس بفعل مباح فإن مشى فيه على القصد وأوساط الأمور فحسن، وإن أفرط حتى دخل الضرر حصل–أيضا– من المسرفين وتوجه النهي عليه، مثل ذلك: أن يفرط الإنسان في شراء ثياب ونحوها ويستنفد في ذلك جل ماله، أو يعطي ماله أجمع ويكابد بعياله الفقر بعد ذلك، ونحوه. فالله عز وجل لا يحب شيئا من هذا. وقد نهت الشريعة عنه»[1].

كما ورد –أيضا– الترغيب بشدة في الزواج والتزويج لكل من لا زوج له، لتلبية حاجة الجسد وإشباع شهوته، وإعفافه من الوقوع في الفواحش المحرمة، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾[2]، وقال أيضا: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾[3]،

فاستوفى الجسد بتشريع الله تعالى إشباع حاجاته كاملة من دون نقص.

وبالمقابل فرض الله تعالى الحد الأدنى الذي لا يجوز النزول عنه من العبادات المتنوعة من الصلاة والصيام والزكاة والحج لتفي بحاجة الروح وتهذبها وتطهرها، فتعيد الإنسان إلى الطريق الأقوم والأعدل على الدوام، فقال تعالى عن الصلاة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[4]، وعن أنس –رضي الله عنه– قال:

---

(1) ابن عطية: المحرر الوجيز. مرجع سابق، (ج٢، ص٣٩٣).

(2) سورة النور، الآية ٣٢.

(3) سورة النساء، الآية ٣.

(4) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

قال رسول الله ﷺ : "... وجعلت قرة عيني في الصلاة "[1]، وكان -ﷺ- يقول: " يا بِلالُ أَقِمْ الصَّلاةَ أَرِحْنَا بها"[2].

وقال عن الزكاة: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[3]، وقال عن الصيام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾[4]، وقال عن فريضة الحج: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾[5]، وبين في آية أخرى السلوكيات التي يجب على الحاج الابتعاد عنها ليتحقق حجه وتتزود روحه بالتقوى، فقال سبحانه: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[6]، فتتحقق الطمأنينة الكاملة نتيجة لذلك، قال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[7]، أي «وتسكن قلوبهم وتستأنس بذكر الله»[8].

وجاء النهى من الشارع الحكيم أيضا عن الأمور التي تؤدي إلى سقم الروح وضعفها، فنهى عن اتباع الأهواء والشبهات والانهماك في الملذات؛ لأنها تعمي القلب وتجعله غافلا عن ذكر الله، وتودي به إلى أقصى طرف في التفريط، فيصبح حاله أسوأ من حال البهيمة، كما قال الله عن الكفار: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[9]، وقال

([1]) أخرجه أحمد في مسنده. (ج٣. ص١٢٨، حديث رقم: ١٢٣١٥)، والنسائي في سننه الكبرى.(ج٥، ص٢٨٠، حديث رقم: ٨٨٨٧)، وأورده الحاكم في المستدرك على الصحيحين. مراجع سابقة، (ج٢، ص١٧٤، حديث رقم: ٢٦٧٦)، وقال عنه: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

([2]) أخرجه أبو داود في سننه من حديث سالم بن أبي الجعد: (ج٤، ص٢٩٦، حديث رقم: ٤٩٨٥)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح. مرجعان سابقان، (ج١، ص٢٧٨، حديث رقم: ١٢٥٣)، [١٣].

([3]) سورة التوبة، الآية ١٠٣.

([4]) سورة البقرة، الآية ١٨٣.

([5]) سورة آل عمران، الآية ٩٧.

([6]) سورة البقرة، الآية ١٩٧.

([7]) سورة الرعد، الآية ٢٨.

([8]) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٣، ص١٤٥).

([9]) سورة الفرقان، الآية ٤٤.

أيضا: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾[1]، فجاء تقدير العبادات في الشرع الحنيف بما يتلاءم مع ما تحتاجه الروح من غذاء، بعيدا عن الرهبانية التي تقمع شهوات الجسد، وتمنعه من حاجياته الضرورية، وتعزله بعيدا عن مخالطة الناس في الكهوف والصوامع ، كما هو حال بعض النصارى الذين قال الله عنهم: ﴿ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ ﴾[2].

قال ابن كثير: « أي ابتدعتها أمة النصارى.﴿ مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ ﴾، أي ما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم، وقوله تعالى:﴿ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾، فيه قولان: أحدهما: أنهم قصدوا بذلك رضوان الله...، والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم رضوان الله. وقوله تعالى: ﴿ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾، أي فما قاموا بما التزموه حق القيام. وهذا ذم لهم من وجهين: أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل»[3].

وقد حذر رسول الله –ﷺ– من هذا التطرف فقال: "لا تشددوا على أنفسكم، فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم، وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات"[4].

فظهر بهذا التوازن الذي قرره القرآن الكريم بسلوكه طريقا وسطا بين من أقبل على تلبية رغبات الجسد من دون أن يلتفت إلى الروح، وبين من انقطع عنه مشتغلا بترويض الروح حتى أوهنها وأضر بجسده، فجمع بهذا بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، وأحرز للعبد منفعتيهما جميعا.

خامسا: تقويم النبي –ﷺ– لغلو بعض أصحابه في العبادة:

---

(1) سورة محمد، الآية ١٢.

(2) سورة الحديد، الآية ٢٧.

(3) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٤، ص٣١٦).

(4) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط من حديث سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن جده: (ج٣، ص٢٥٨، حديث رقم: ٣٠٧٨)، وأوره الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة. مرجعان سابقان، برقم: (٣١٢٤).

لا شك أن الوفاء بأي حق من الحقوق هو من إقامة الميزان، وأن التفريط بعدم الوفاء لأي حق من الحقوق أيضا يمثل إخسارا للميزان الذي نهى الله تعالى عن إخساره، كما في قوله جل وعلا: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾[1].

وعند النظر إلى العبادات المتنوعة من الفرائض والنوافل التي يقوم بها العبد في اليوم والليلة مقتديا في فعلها بمحمد -ﷺ-، فإنها متوازنة لتكون في مقدور كل مكلف بحسب وسعه وطاقته، ولا يمنع تعددها وتنوعها في اليوم والليلة من الإتيان بها جميعا دون تفويت لأي حق منها، بل يتمكن العبد من أداء الحقوق كلها: حق الله تعالى، وحق النفس، وحق الأهل والأصحاب، وحق كل من له حق عليه بسهولة ويسر بالقسطاس المستقيم.

وهذه هي المنهجية التي انتهجها محمدا -ﷺ- في سائر حياته، وأوصى بها صحابته وأمته كما في حديث أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قال: قال رسول اللَّهِ -ﷺ-: "...سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ من الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا "[2]؛ ذلك لأن الإتيان بجميع الحقوق يستلزم الموازنة في صرف الجهد والطاقة بحسب ما يتطلبه كل حق، وأن الانكباب والمبالغة بزيادة صرف الطاقة على جانب ما يؤثر سلبا على بقية الجوانب، وقد كان النبي-ﷺ- يوجه أصحابه إلى سلوك طريق التوازن للتوفيق بين الواجبات المناطة بهم من دون بخس أو نقص لأي منها، وينهاهم عن الغلو والشطط إذا فعلوا ذلك، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ -رضي الله عنه- قال: دخل النبي -ﷺ- فإذا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بين السَّارِيَتَيْنِ، فقال: "ما هذا الْحَبْلُ؟ قالوا: هذا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ[3] فإذا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ، فقال النبي ﷺ: لا. حُلُّوهُ. لِيُصَلِّ أحدكم نَشَاطَهُ، فإذا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ"[4].

وجاء عن عبد اللَّهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ – رضي الله عنهما– قال: قال لي رسول اللَّهِ-ﷺ-: "يا عَبْدَ اللَّهِ أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ ؟ فقلت: بَلَى يا

---

(1) سورة الرحمن، الآية ٩.

(2) أنظر تخريجه: (ص٦٣).

(3) هي زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين، وهي بنت عمة النبي ﷺ أميمة، وكانت تفتخر تقول: زوجني الله من فوق عرشه، ماتت سنة عشرين. أنظر: الذهبي: الكاشف. مرجع سابق، (ج٢، ص٥٠٨).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج١، ص٣٨٦، حديث رقم: ١٠٩٩).

رَسُولَ اللَّهِ. قال: فلا تَفْعَلْ. صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ. فإن لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا. وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، فإن لك بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا فإن ذلك صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ. فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ. قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ إني أَجِدُ قُوَّةً. قال: فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ -عليه السلام-ولا تَزِدْ عليه. قلت: وما كان صِيَامُ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ-عليه السلام-. قال: نِصْفَ الدَّهْرِ.

فَكَانَ عبد اللَّهِ يقول بَعْدَ ما كَبِر: يا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النبي ﷺ "[1].

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: "جاء ثَلاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النبي -ﷺ- يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النبي-ﷺ-، فلما أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ من النبي ﷺ ؟ قد غفِر ٰالله له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ. قال أَحَدُهُمْ: أَمَّا أنا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا. وقال آخَرُ: أنا أَصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ. وقال آخَرُ: أنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رسول اللَّهِ -ﷺ- فقال: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ! أَمَا والله إني لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ له. لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ. فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"[2].

فسنة النبي-ﷺ- هي طريقته، «والمراد من تَرَك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية، فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى وقد عابهم بأنهم ما وفوه بما التزموه، وطريقة النبي-ﷺ- الحنيفية السمحة. فيفطر ليتقوى على الصوم، وينام ليتقوى على القيام، ويتزوج لكسر الشهوة واعفاف النفس وتكثير النسل»[3].

وروى ابن عَبَّاسٍ-رضي الله عنهما- قال: بَيْنَا النبي-ﷺ- يَخْطُبُ إذا هو بِرَجُلٍ قَائِمٍ فَسَأَلَ عنه! فَقَالُوا: أبو إِسْرَائِيلَ[4] نَذَرَ أَنْ يَقُومَ ولا يَقْعُدَ، ولا يَسْتَظِلَّ، ولا يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ. فقال

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٢، ص٦٩٧، حديث رقم: ١٨٧٤).

(2) المرجع نفسه. (ج٥، ص١٩٤٩، حديث رقم: ٤٧٧٦).

(3) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، (ج٩، ص١٠٥).

(4) هو أبو إسرائيل الأنصاري أو القرشي العامري، صحابي، قيل: اسمه يسير بتحتانية، وقيل: قشير، وليس = = في الصحابة من يكنى أبا إسرائيل غيره. أنظر: ابن حجر: الإصابة. مرجع سابق، (ج٧، ص١٢).

النبـي –ﷺ–: "مُـرْهُ فَلْيَـتَكَلَّمْ، وَلْيَسْـتَظِلَّ، وَلْيَقْعُـدْ، وَلْيُـتِمَّ صَـوْمَهُ"[1]. فقد أمـر النبـي –ﷺ– بمواصلة الصوم؛ لأنه قربة لله تعالى وطاعة، ونهى عن مواصلة بقية النذور؛ لأنها تعذيب للجسد، ولا مصلحة في ذلك.

بل عاتب الله تعالى رسوله حين أعرض بوجهه عن الأعمى المؤمن حرصا منه على دعوة رجل من عظماء المشركين، فأنزل الله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ... ﴾[2]، قال القرطبي: ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني، وكان النظر إلى المؤمن أولى وإن كان فقيرا أصلح وأولى من الأمر الآخر، وهو الإقبال على الأغنياء طمعا في إيمانهم، والذي جرى من النبي ﷺ كان ترك الأولى، وإن كان ذلك – أيضا– نوعا من المصلحة[3]. وعلى هذا يخرج قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[4].

قال الطبري: «وإنما قال الله جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ يعرفه أن قتل المشركين الذين أسرهم ﷺ يوم بدر ثم فادى بهم كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم»[5].

ذلك لأنهم رؤوس الكفر الذين حرصوا على استئصال المؤمنين، ولم يرقبوا في أحد منهم مودة ولا قرابة، فكان الأولى أن يفعل بهم ما أرادوا فعله بالمؤمنين.

بل جاء الوحي من الله تعالى لرسوله ﷺ عندما أراد أن يَحْرم نفسه مما أباحه الله له ليرضي بعض أزواجه قائلا له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[6]، قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا أيها النبي المحرم على نفسه ما أحل الله له يبتغي بذلك مرضاة أزواجه **لم تحرّم على نفسك الحلال** الذي أحله الله لك تلتمس بتحريمك ذلك مرضاة أزواجك»[7]. وفي هذا توازن بين.

المبحث الثالث

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٦، ص٢٤٦٥، حديث رقم: ٦٣٢٦).

(2) سورة عبس، الآية ١ – ١١.

(3) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. بتصرف، مرجع سابق، **(ج١٩، ص٢١٣، ٢١٥)**

(4) سورة الأنفال، الآية : ٦٧.

(5) الطبري: جامع البيان، مرجع سابق، (ج١٠:ص٤٢).

(6) سورة التحريم، الآية١.

(7) المرجع السابق، (ج٢٨، ١٥٥)

التوازن في المعاملات

أولا: التوازن في العلاقات التعاقدية:

يقرر القرآن الكريم في علاقات الناس التعاقدية المختلفة مبدأ الوفاء بالعقود، حيث يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾[1].

«قال الحسن: يعني بذلك عقود الدين. وهي ما عقده المرء على نفسه من بيع، وشراء، وإجارة، وكراء، ومناكحة، وطلاق، ومزارعة، ومصالحة، وتمليك، وتخيير، وعتق، وتدبير، وغير ذلك من الأمور ما كان ذلك غير خارج عن الشريعة ...»[2].

«والعقد: الجمع بين الشيئين بما يعسر الانفصال معه، وأصله: الشد. والوفاء: إتمام العهد بفعل ما عقد عليه»[3].

وكما أن لكل متعاقد أن يستوفي ما له بالقسطاس المستقيم، فيجب عليه كذلك أن يفي بما عليه بالقسطاس المستقيم أيضا من غير بخس أو نقص؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ ﴾[4]، ويقول عن قيل شعيب –عليه السلام– لقومه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥ ﴾[5]، ويحذر المولى–عز وجل– من التطفيف تحذيرا شديدا، ويتوعد من يفعل ذلك في أي معاملة أو تعاقد يستوجب الوفاء بالعذاب يوم القيامة؛ لأنه متى ما رفع من المعاملة روح العدل والأمانة،وحل محله البخس والغش والتطفيف والخيانة، فإن صاحبها يعرض نفسه لعقوبة رب العالمين، قال تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤

---

(1) سورة المائدة، الآية١.

(2) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. مرجع سابق، (ج٦، ص٣٢).

(3) شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري: التبيان في تفسير غريب القرآن. تحقيق: فتحي أنور الدابلوي، دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ط١، (ج١، ص١٧٦).

(4) سورة الرحمن، الآية ٩.

(5) سورة هود، الآية ٨٥.

لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾[1]، وقد أصبح بنكثه وغشه على غير سبيل محمد -ﷺ-، فقد جاء عن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قال:" ... وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا"[2].

فالشرع الحكيم يوجب على المتعاقدين السير على حدود التراضي والاتفاق من غير تجاوز ولا تقصير، ومن غير ظلم أو جور يُلحق الضرر بالآخرين أو يستبيح حقوقهم؛ فالله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ ﴾[3].

بل إن آية الدَّين وهي أطول آية في القرآن الكريم وردت في ضبط وبيان معاملة الناس مع بعضهم البعض في بيعهم وشرائهم الحاضر والمؤجل، وفي بيان وسائل حفظ ذلك من كتابة وإشهاد ورهنٍ بتفصيل دقيق يظهر العدل والتوازن الكامل في إحقاق الحق من دون أدنى تفريط أو إفراط في ذلك، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِۢبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِۢبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِۢبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝٢٨٢ ﴾[4].

([1]) سورة المطففين، الآية ١- ٦.

([2]) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج١، ص٩٩، حديث رقم: ١٠١).

([3]) سورة النساء، الآية ٢٩.

([4]) سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

والظاهر مما سبق أن التوجيهات القرآنية بإقامة العدل وتسوية الموازين في المعاملات المختلفة، والتحذير من إنقاصها أو بخسها، والأمر بالوفاء بما تم التعاقد عليه مما لم يخالف الشرع كالميسر والربا والسرقة، يظهر معنى التوازن بجلاء كامل، بل جعْل هذه المعاملات التعاقدية قائمة على أساس التعادل في التبادل من دون تقصير أو إهمال أو إكراه، أو تدليس أو غش أو غبن ونحو ذلك من مفسدات العقود، دليل واضح –أيضا–على التوازن الذي قرره القرآن الكريم في هذه المعاملات.

ثانيا: التوازن في جمع المال وإنفاقه:

١. التوازن في جمع المال:

وردت في القرآن الكريم العديد من الآيات تبين خطورة الانهماك في جمع المال والإفراط في حبه، منها قوله تعالى: ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾[١]، وقوله: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾[٢]، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾[٣].

والقرآن حين يحذر من الإفراط في حب المال، فإنه ليس ضد جمعه، بل جمعه مشروع.

وقد جاءت الآيات الكثيرة تبين مشروعية ذلك، ومنها ما أخبر به تعالى ممتنًا على بني إسرائيل بقوله: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾[٤]، وما أخبر به عن قيل نوح لقومه داعيًا إياهم إلى الإيمان، ومبينًا عاقبة ذلك في الدنيا قبل الآخرة: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾[٥]، وبقوله تعالى آمرًا بالمحافظة على المال الذي هو منه:

---

(١) سورة الفجر، الآية ١٩، ٢٠.

(٢) سورة التكاثر، الآية ١– ٤.

(٣) سورة العاديات، الآية ٦– ٨.

(٤) سورة الإسراء، الآية ٦.

(٥) سورة نوح، الآية ١١، ١٢.

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾[1]؛ ذلك لأن حب المال أمر فطري لا ينكره إلا مكابر، وإنما الأمر المنهي عنه هو الغلو في حبه وتقديسه بما يؤدي إلى ترك الواجبات الشرعية، والنكول عن العمل للدار الأخروية، وهذا توازن بيّن جاء التنبيه عليه في أكثر من آية، منها قوله سبحانه: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾[2]، ثم قرر في الوقت نفسه المنطلقات الشرعية في كسب المال وتحصيله، فلم يطلق العنان في جمعه من كل اتجاه، بل قيد كسبه باشتراط الحل والبعد عن الحرمة، وجعل قاعدة ذلك كله قوله تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾[3]، ونبه على بعض أوجه الكسب المحرمة، كالسرقة حيث قال سبحانه: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا ﴾[4]، وأكل مال اليتيم. قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾[5].

وبالجملة فكل مال أُخذ بالباطل فهو محرم، ولذلك جاءت الآيات تنهى عن أكل المال بالباطل، قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾[6].

ومما سبق يتضح أن القرآن الكريم وضع منهجًا متوازنا في كسب المال، فقد ابتعد عن التفريط إذ لم يقر جمع المال بإباحة جميع المعاملات، ولكن توازن بين الطرفين فجعل الأصل في هذه البيوع والمعاملات الحل والإباحة إلا ما ورد في تحريمه نص صريح، أو كان داخلا تحت دليل عام لا يخرجه عن الضرر أو الغرر أو الظلم، ونحو ذلك مما فصله الفقهاء في كتب الفقه.

---

(1) سورة النساء، الآية ٥.

(2) سورة الكهف، الآية ٤٦.

(3) سورة البقرة، الآية ٢٧٥.

(4) سورة المائدة، الآية ٣٨.

(5) سورة النساء، الآية ١٠.

(6) سورة البقرة، الآية ١٨٨.

٢. التوازن في إنفاق المال:

يقرر القرآن الكريم منهجية التوازن في الإنفاق باتخاذه طريقا معتدلا بين الإقتار والإسراف، فقد وردت الآيات القرآنية تبين سلامة هذا المنهج، وتأمر به، وتحث عليه. وتنهى في المقابل عن سلوك المنهجين الآخرين؛ لانحرافهما عن الطريق الأقوم، فالمُقَتِّرون أفرطوا في الإمساك والبخل فنأوا بذلك عن سواء السبيل، فاستحقوا الذم من الله تعالى لانحراف منهجهم، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾[٢].

والمسرفون استحقوا ذم الله تعالى لهم لتفريطهم في تبذير المال، وهم الطرف المقابل للمُقتِّرين. ومنهجهم ليس بأحسن حالا من منهج الإقتار والبخل، فقد نال قسطه من الذم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾[٣]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾[٤].

ومع وضوح منهجية التوازن التي قررها القرآن الكريم في إنفاق المال والتي جاءت مباينة لكل من: الإقتار، والإسراف، فقد وردت آيات أخرى تدلّ صراحة على انحراف كل من الطرفين المذكورين، وينصّ بعضها على المنهج المتوازن بينهما، وأنه المنهج الحق الذي لا يجب مجاوزته، ومن ذلك ما وصف الله به المؤمنين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[٥]، وكذلك

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية ١٠٠.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٢٦، ٢٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٤١.

(٥) سورة الفرقان، الآية ٦٧.

ما ورد في قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[1].

قال ابن كثير في تأويل قوله تعالى: «﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا... الآية﴾، أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون فلا يكفونهم، بل عدلا خيارا. وخير الأمور أوسطها. لا هذا ولا هذا»[2].

«والإقتار والتقتير: التضييق الذي هو نقيض الإسراف. والإسراف: مجاوزة الحدّ في النفقة. ووصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير، وبمثله أُمر رسول الله ﷺ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ »[3].

ويدل على تقرير التوازن – أيضا– ما جاء في النفقة، وهو قوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾[4]، وهذا من التوازن النسبي الذي يراعى فيه حال المنفق، وما جرت العادة به، ونحو ذلك.

قال القرطبي: «فتقدّر النفقة بحسب الحالة من المنفِق، والحاجة من المنفَق عليه بالاجتهاد على مجرى حياة العادة، فينظر المفتي إلى قدر حاجة المنفَق عليه، ثم ينظر إلى حالة المنفق، فإن احتملت الحالة أمضاها عليه، وإن اقتصرت حالته على حالة المنفق عليه ردّها إلى قدر احتماله»[5].

من خلال ما سبق يتبين منهج التوازن واضحًا جليًّا في جمع المال وإنفاقه.

ثالثا: التوازن في العلاقات الاجتماعية:

١. التوازن في نطاق الأسرة:

أ- التوازن في البر بالوالدين:

لما كان الوالدان هما أكثر الناس إحسانا في الدنيا لأبنائهم منذ خروجهم إليها وحتى بلوغهم مرحلة القوة والأشُد، وكانا –أيضا– هما السبب في وجودهم قبل ذلك، فقد

---

(1) سورة الإسراء، الآية ٢٩.

(2) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٣، ص٣٢٦).

(3) الزمخشري: الكشاف. مرجع سابق، (ج٣، ص٢٩٩).

(4) سورة الطلاق، من الآية ٧.

(5) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. مرجع سابق، (ج١٨، ص١٧٠).

أوجب الله تعالى على الأولاد البر بهما، وعدم عقوقهما ولو بأدنى كلمة تحمل في طياتها التأفف والضجر، بل وَقَرن طاعتهما بطاعته، قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

قال الرازي في تنكير ﴿ إِحْسَٰنًا ﴾، «والتنكير يدل على التعظيم. والمعنى: وقضى ربك أن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً عظيماً كاملاً؛ وذلك لأنه لما كان إحسانهما إليك قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسانك إليهما كذلك، ثم على جميع التقديرات فلا تحصل المكافأة؛ لأن إنعامهما عليك كان على سبيل الابتداء وفي الأمثال المشهورة أن البادي بالبر لا يكافأ»[2].

وقال السعدي في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾، «أي ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتا جزاء على تربيتهما إياك صغيرا. وفهم من هذا أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق»[3].

وبر الوالدين لا يختص بأن يكونا مسلمين، بل حتى ولو كانا كافرين، قال تعالى﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[4].

وهذا توازن بيّن في بر الوالدين، حيث قرر لهما القرآن الكريم أقصى ما يمكن أن ينالاه من بر أولادهما في كبرهما جزاءً لهما، وهو بالنسبة للأولاد أدنى ما يمكن أن يقابلوا به إحسان والديهم لهم. وهذا أعدل ما يجب للوالدين من حق على أولادهم، وأعدل ما يجب على الأولاد أن يوفوا آباءهم.

---

(1) سورة الإسراء، الآية ٢٣، ٢٤.

(2) الرازي: التفسير الكبير. مرجع سابق، (ج٢٠، ص١٤٩).

(3) السعدي: تيسير الكريم الرحمن. مرجع سابق، (ج١، ص٤٥٦).

(4) سورة لقمان، الآية ١٥.

ب- التوازن في تعامل الآباء مع الأبناء:

يتناول قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[1]، العدل والمساواة بين الأولاد، كما يتناول هذا الأمر -أيضا- قول الله تعالى:﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ ﴾[2]، وقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾[3].

فالتسوية بين الأولاد في العطايا والهبات ميزان وقسط، حيث يُعطى كل واحد منهم مثل ما يُعطى الآخر، وقد نبه النبي -ﷺ- إلى هذا الأمر، حيث ورد عن النُّعْمَانَ بن بَشِير -رضي الله عنه- أنه قال: أَعْطَانِي أبي عَطِيَّةً، فقالت عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لاَ أَرْضَى حتى تُشْهِدَ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ-، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ-، فقال: إني أَعْطَيْتُ ابْنِي من عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: "أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هذا؟ قال: لاَ. قال: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بين أَوْلاَدِكُمْ. قال: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ"[4].

وأما إذا كان أحد الأولاد بارا بوالده أكثر من الآخر، فليس ذلك مدعاة للوالد أن يفضله بالعطية على غيره، بل بره بوالده أجره على الله. وأما الوالد فعليه التسوية بين أولاده؛ لأنه إذا فضّل من يبره كان ذلك إغراء للآخرين بالعقوق، كما أنه سيوقع بين أولاده العداوة البغضاء، ولعل الأحوال أن تنقلب فيصبح البار عاقا والعاق بارا.

وأما بالنسبة لقوله تعالى:﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾[5] ، فإنه في الميراث، وليس فيه ظلم للأنثى؛ لأن الشرع قرر لها حقوقا أخرى لم يقررها للذكر، كالصداق عند زواجها، والنفقة لها من الزوج... بخلاف الذكر الذي يتحمل كل ذلك، بل يوجب الشرع عليه النفقة لأبنائهما دونها، وهي غير ملزمة أن تنفق شيئا من نصيبها، وهكذا عند النظر إلى ما قرره الشرع لكل منهما يتضح أنها قسمة متوازنة وفي غاية العدل.

فظهر بهذا تقرير القرآن الكريم للتوازن في معاملة الآباء لأولادهم.

---

(1) سورة النحل، الآية ٩٠.

(2) سورة الرحمن، الآية ٩.

(3) سورة النساء، الآية ١٣٥.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٢، ص٩١٤، حديث رقم: ٢٤٤٧).

(5) سورة النساء، الآية ١١.

ج- التوازن في المعاملة الزوجية:

يقرر القرآن الكريم منهجية التوازن في التعامل بين الزوجين، حيث أقامها على أساس العدل المتبادل بينهما في الحقوق الزوجية، فعلى كل واحد من الزوجين معاشرة الآخر بالمعروف، فمتى قام كل منهما بما عليه استقامت الحياة الزوجية بينهما، قال جل وعلا: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[1].

قال ابن كثير: «أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن. فليؤدي كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف»[2].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تزَّيَّن لي؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾...»[3].

وفي تأويل قوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[4].

قال السعدي في تفسيره: «وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف من الصحبة الجميلة وكف الأذى وبذل الإحسان وحسن المعاملة. ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما. فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان. وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال»[5].

بل يزداد معنى التوازن وضوحا في الحياة الزوجية ببيان النبي -ﷺ- لما تستحقه المرأة على زوجها من حق مماثل له، فقد سئل رسول الله -ﷺ-: ما حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عليه؟ قال: "أَنْ تُطْعِمَهَا إذ طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إذا اكْتَسَيْتَ ..." [6].

ولما كان الحال في الرجل الذي له أكثر من زوجة أن يميل في طباعه إلى إحدى

---

(1) سورة البقرة، الآية ٢٢٨.

(2) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج١، ص٢٧٢)، وانظر: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي: تفسير مقاتل بن سليمان. تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، (ج١، ص١٢٠).

(3) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى. مرجع سابق، (ج٧، ص٢٩٥، حديث رقم: ١٤٥٠٥).

(4) سورة النساء، الآية ١٩.

(5) السعدي: تيسير الكريم الرحمن. مرجع سابق، (ج١، ص١٧٢).

(6) أخرجه أبو داود في سننه من حديث معاوية القشيري. مرجع سابق، (ج٢، ص٢٤٤، حديث رقم: ٢١٤٢)، وصححه الألباني في غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام. المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ، (ج١، ص١٥٣، حديث رقم: ٢٤٤).

نسائه دون البعض الآخر بحكم الخِلقة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾[1]، فقد جاء التعقيب مباشرة بعدم الانجرار وراء هذا الميل، حيث قال سبحانه: ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾[2]، «قال مجاهد: لا تتعمدوا الإساءة، بل الزموا التسوية في القسم والنفقة؛ لأن هذا مما يستطاع»[3].

وقد جاء عن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: "من كانت له امْرَأَتَانِ فَمَالَ إلى إِحْدَاهُمَا، جاء يوم الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ"[4].

فالميل خروج عن التوازن في المعاملة الزوجية، ولذلك جاء التحذير منه، وهذا يوجب على الزوج أن يسوي بين نسائه في الأمور المستطاعة، وهي الخارجة عن ميلان النفس، حتى تتعادل الحقوق والعطايا بينهن.

٢. التوازن في إطار المجتمع:

أ-التعامل مع مختلف أطياف المجتمع:

لا يخرج تعامل الفرد المسلم مع غيره من عامة الناس عن حدود الاعتدال والتوازن، فهو مأمور أن يقول الحق حتى ولو كان فيه ضرر على الأقربين ناهيك عن غيرهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[5]، كما يدخل هذا الأمر دخولا أوليا في عموم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[6]، وفي عموم الآيات التي تأمر بتسوية الموازين، كقوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾[7]، وقوله: ﴿ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ ﴾[8].

ولا يخفى ما في هذه الآيات من دلالة واضحة على لزوم الحق في التعامل من

---

(1) سورة النساء، الآية ١٢٩.

(2) سورة النساء، الآية ١٢٩.

(3) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، (ج٥، ص٤٠٧).

(4) أخرجه أبو داود في سننه: (ج٢، ص٢٤٢، حديث رقم: ٢١٣٣)، والنسائي في سننه الكبرى. (ج٥، ص٢٨٠، حديث رقم: ٨٨٩٠)، وصححه الألباني في إرواء الغليل. مراجع سابقة، (ج٧، ص٨٠، حديث رقم: ٢٠١٧).

(5) سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

(6) سورة النحل، الآية ٩٠.

(7) سورة الرحمن، الآية ٩.

(8) سورة الشعراء، الآية ١٨٢.

دون تجاوز له، أو ميل عنه.

بل إن القرآن الكريم يوجب على المسلم أن يحافظ على اعتداله وتوازنه حتى مع ألد خصومه، فلا يحمله بغضه لهم أن يجاوز الحق معهم إلى الجور، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1].

قال ابن كثير: «أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد في كل أحد في كل حال»[2]، ولهذا جاء التأكيد مكررا على إقامة العدل في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[3].

ولا يخفى ما في هذه التوجيهات القرآنية من اتزان بالغ يجعل المسلم يتعامل مع ألد أعدائه كما يتعامل مع أقرب أقربائه، فلا يجاوز العدل حبا في أقربائه، كما لا يجاوزه بغضا مع أعدى أعدائه.

ب- التوازن في معاملة الجناة بالمثل:

من التوازن الذي تميز به التشريع الحكيم عن غيره، هو إيقاع العقوبات على الجناة بمثل ما فعلوه بالمُعتدى عليهم، حيث قرر القصاص في الجراحات المختلفة في حال إصرار المجني عليه بالمطالبة بذلك إن كان ذلك مما يمكن فعله، ويمكن مماثلته كقتل القاتل، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾[4].

قال الطبري: «أي أن الحر إذا قتل الحر فدم القاتل كفء لدم القتيل والقصاص منه دون غيره من الناس، فلا تجاوزوا بالقتل إلى غيره ممن لم يقتل، فإنه حرام عليكم أن تقتلوا بقتيلكم غير قاتله...، فإن قال قائل: فإنه -تعالى ذكره- قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾، فما لنا أن نقتص للحر إلا من الحر ولا للأنثى إلا من الأنثى ؟ قيل: بل لنا أن نقتص للحر من العبد، وللأنثى من الذكر بقول

---

(1) سورة المائدة، الآية ٢.

(2) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٢، ص٦).

(3) سورة المائدة، الآية ٨.

(4) سورة البقرة، الآية ١٧٨.

الله – تعالى ذكره–: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾[1]، وبالنقل المستفيض عن رسول الله –ﷺ– أنه قال: "الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ..." [2]، فإن قال: فإذا كان ذلك فما وجه تأويل هذه الآية ؟ قيل: اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: نزلت هذه الآية في قوم كانوا إذا قتل الرجل منهم عبد قوم آخرين لم يرضوا من قتيلهم بدم قاتله من أجل أنه عبد حتى يقتلوا به سيده، وإذا قتلت المرأة من غيرهم رجلا لم يرضوا من دم صاحبهم بالمرأة القاتلة حتى يقتلوا رجلا من رهط المرأة وعشيرتها، فأنزل الله هذه الآية، فأعلمهم أن الذي فرض لهم من القصاص: أن يقتلوا بالرجل الرجل القاتل دون غيره، وبالأنثى الأنثى القاتلة دون غيرها من الرجال، وبالعبد العبد القاتل دون غيره من الأحرار، فنهاهم أن يتعدوا القاتل إلى غيره في القصاص»[3].

ولاشك أن قصر القصاص على القاتل من دون تجاوز إلى غيره توازن بين، كما أن رضا أولياء دم المجني عليه بأخذهم الدية أو عفوهم عن الجاني توازن كذلك؛ لأن الشرع قد خيرهم في ذلك كله لإزالة ما في نفوسهم من عوامل الانتقام. فمتى وافق هواهم الحق من ذلك فذاك توازن؛ لأن النفوس قد استقرت على الحق فلم تتعداه إلى الباطل، وتكون عند ذلك قد أمنت على حياتها، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[4].

والقصاص ليس مقصورا على النفس فقط، بل يشمل أي عضو من الأعضاء يمكن المماثلة به، وقد أخبر الله تعالى بأنه قد افترض ذلك على اليهود في التوراة، قال سبحانه: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾[5]، ومع أن هذه الأحكام الواردة في الآية هي مما افترضه الله على اليهود، إلا أن ورودها في القرآن الكريم من غير نسخ يوجب على

---

(1) سورة الإسراء، الآية ٣٣.

(2) أخرجه أبو داود في سننه من حديث عَمْرِو بن شُعَيْبٍ عن أبيه عن جَدِّهِ: (ج٣، ص٨٠، حديث رقم: ٢٧٥١)، وصححه الألباني في مختصر إرواء الغليل، مرجعان سابقان، (ج١، ص٤٣٩، حديث رقم: ٢٢٠٨).

(3) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٢، ص١٠٢، ١٠٣).

(4) سورة البقرة، الآية ١٧٩.

(5) سورة المائدة، الآية ٤٥.

المسلمين العمل بها، «وقد استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا: إذا حُكي مقررا ولم يُنسخ، كما هو المشهور عن الجمهور»[1].

وقد وردت آيات أخرى تبين المماثلة في الاقتصاص سواءً كانت في الأعضاء الحسية أو كانت في الأمور المعنوية، كالاقتصاص من الشاتم والساب بمثل لفظه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[2]،أي «وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة»[3].

وذكر السعدي دلالة الآية على عموم الاقتصاص في الأقوال والأفعال، حيث قال: «﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ من أساء إليكم بالقول والفعل، ﴿فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم»[4].

فتقرير القرآن الكريم للمماثلة في العقوبة يعد توازنا بينا؛ ذلك لأن إيقاعها على المعاقب يكون بتقدير دقيق يقتضي التسوية من كل جوانبها، فلا يسمح بالزيادة على القدر المسموح به، ومن فعل ذلك فقد ظلم وتجاوز وأوجب الشرع الحكيم عليه القصاص لما أحدثه من جناية زائدة. ثم ليس لأحد أن يقتص لنفسه، وإنما الحاكم هو من يقوم بذلك دفعا للمفاسد، وتقديرا لإمكان إيقاع المماثلة من عدمها؛ لأنه في حال عدم الإمكان من المماثلة بسبب ما قد يترتب على ذلك من مفاسد غير آمنة، فإن تقدير أروش الجنايات يقوم مقام الاقتصاص كما هو معلوم. وفي هذا توازن ظاهر يعطي المجني عليه حقه، ويراعي تقدير الضرر الذي قد يلحق الجاني إذا كانت الجناية في مكان يتعذر فيه القصاص؛ لأن الواجب المماثلة لقوله تعالى:﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[5]، قال الطبري: «معناه: وجزاء سيئة المسيء عقوبته بما أوجبه الله عليه، فهي وإن كانت عقوبة من الله أوجبها عليه فهي مساءة له، والسيئة: إنما هي الفعلة من

---

(1) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٢، ص٦٣).

(2) سورة النحل، الآية ١٢٦.

(3) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٤، ص١٩٥).

(4) السعدي: تيسير الكريم الرحمن. (ج١، ص٤٥٢)، وانظر: الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل. مرجعان سابقان، (ج٢، ص١٦٥).

(5) سورة الشورى، الآية ٤٠.

السوء، وذلك نظير قول الله عز وجل: ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾[1]، وقد قيل: إن معنى ذلك: أن يجاب القائل الكلمة القزعة بمثلها»[2].

رابعا: التوازن في التعامل مع غير المسلمين:

١. التوازن في التعامل مع المسالمين:

كما أن القرآن الكريم يقرر التوازن في التعامل العادل مع عامة المسلمين، فكذلك يقرره في معاملة غير المسلمين، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾[3].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من أهل مكة ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم. يقول: وتعدلوا فيهم بإحسانكم إليهم وبركم بهم»[4].

وقال الشوكاني: «ومعنى الآية: أن الله سبحانه لا ينهى عن بر أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل»[5].

بل جاء في حديث أَنَسَ بن مَالِكٍ -رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول اللَّهِ -ﷺ-: "اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كان كَافِراً، فإنه ليس دُونَهَا حِجَابٌ"[6].

ولذلك لا يجوز خيانتهم أو الجور معهم؛ لأن ذلك ليس من العدل في شيء. وقد تقاضى علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وهو خليفة المسلمين مع يهودي أمام القاضي شريح، فقضى شريح لليهودي كما هو معلوم. وهذا توازن واضح في معاملة المسلمين مع غيرهم وإن اختلفوا معهم في الدين والملة؛ ذلك لأن توازنهم قائم على أساس امتثال

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

(٢) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٢٥، ص٣٨).

(٣) سورة الممتحنة، الآية ٨.

(٤) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٢٨، ص٦٥).

(٥) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٥، ص٢١٣).

(٦) أخرجه أحمد في مسنده: (ج٣، ص١٥٣، حديث رقم: ١٢٥٧١)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة، مرجعان سابقان، (ج٢، ص٣٩٥، حديث رقم: ٧٦٧)، وقال عنه: حديث حسن.

الشرع الذي يأمر بالعدل ويمنع الظلم، وهذا بدوره يُحتم على المسلم أن يقف على القسطاس المستقيم في تعامله حتى مع غير المسلمين.

٢. التوازن في التعامل مع المحاربين:

لما كان هناك من الكفار من لا يكف أذاه وشره عن المسلمين ولا يفتر عن قتالهم، فقد جاء الشرع الحكيم ليضع حدا لهذا العدوان، فيأمر المسلمين بقتال الذين يقاتلونهم منهم ليدفعوا عن أنفسهم شرهم وفسادهم، ويمنعوا بغيهم واعتداءهم، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾[١].

قال الشنقيطي: «المراد بالذين يقاتلونكم: من شأنهم القتال، أي دون غيرهم كالنساء، والصبيان، والشيوخ الفانية، وأصحاب الصوامع»[٢].

وبما أن هذه الآية مُحكمة[٣]، فقتال من يقاتل توازن ظاهر، والنهي عن الاعتداء على من ليس من شأنهم القتال في دار الحرب من الكفار توازن آخر ينفرد به الشرع الحكيم عن غيره.

بل يخبر القرآن الكريم عن سنة كونية هامة قائمة على أساس توازن القوى، تسمى بسنة التدافع، يرشد القرآن من خلالها المسلمين إلى دفع القوة بالقوة، والقتال بالقتال، وهي سنة عامة من أخذ بها دفع عن نفسه اعتداء غيره، وأوقفه عند حده، وصار مهابا عند أعدائه، فلا يجترئ أحد على النيل منه، قال تعالى:﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ﴾[٤]، قال ابن الجوزي: «وفي معنى الكلام قولان: أحدهما: أن معناه لولا أن الله يدفع بمن أطاعه عمن عصاه، كما دفع عن المتخلفين عن طالوت بمن أطاعه لهلك العصاة بسرعة العقوبة، قاله مجاهد.

والثاني: أن معناه لولا دفع الله المشركين بالمسلمين لغلب المشركون على الأرض،

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٠.

(٢) الشنقيطي: أضواء البيان. (ج١، ص٧٥)، وانظر: النسفي: تفسير النسفي. مرجع سابق، (ج١، ص٩٣).

(٣) أنظر: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد: الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم. تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ، (ج١، ص٢٧).

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٥١.

فقتلوا المسلمين وخربوا المساجد»[1].

وعلى كلا المعنيين، فإن التوازن ظاهر فيهما، ففي دفْع العقوبة عن العصاة بطاعة الطائعين إشارة إلى التوازن التي تحدثه بركة الطاعة، إذ يؤخر الله بها تعجيل العقوبة عليهم في الدنيا، كما يلاحظ التوازن –أيضا– في دفع قوة المشركين بقوة المسلمين المضادة لقوتهم، والتي في حال غيابها يحصل الاعتداء والغلبة عليهم بسبب غياب توازن القوة التي يدفعون بها القوة الكافرة عنهم.

ونظير الآية السابقة قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾[2]، ففي الآية «تحريض على القتال المأذون فيه بإفادة أنه تعالى أجرى العادة بذلك في الأمم الماضية لينتظم به الأمر، وتقوم الشرائع، وتصان المتعبدات من الهدم. فكأنه لما قيل: ﴿أذن للذين يقاتلون﴾ الخ، قيل: فليقاتل المؤمنون. فلولا القتال وتسليط الله تعالى المؤمنين على المشركين في كل عصر وزمان لهدمت متعبداتهم، ولذهبوا شذر مذر...»[3].

وقد أورد ابن الجوزي تأويل ابن عباس لقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[4]، حيث قال: «من قاتلكم في الحرم فقاتلوه، وإنما سمى المقابلة على الاعتداء اعتداء؛ لأن صورة الفعلين واحدة وإن كان أحدهما طاعة والآخر معصية»[5]، وأشار ابن كثير إلى التوازن الذي قررته الآية، فقال: «أمر بالعدل حتى في المشركين...»[6].

بل إن الشرع الحكيم يقرر التوازن مع الكفار المحاربين في حال معاهدتهم إذا ظهرت منهم بوادر الخيانة، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ

---

(1) ابن الجوزي: زاد المسير. مرجع سابق، (ج١، ص٣٠٠).

(2) سورة الحج، الآية ٤٠.

(3) الآلوسي: روح المعاني. مرجع سابق، (ج١٧، ص١٦٢).

(4) سورة البقرة، الآية ١٩٤.

(5) ابن الجوزي: زاد المسير. مرجع سابق، (ج١، ص٢٠٢).

(6) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج١، ص٢٢٩).

سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وإما تخافن يا محمد من عدو لك بينك وبينه عهد وعقد أن ينكث عهده وينقض عقده ويغدر بك، وذلك هو الخيانة والغدر،﴿ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾، يقول: فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم بما كان منهم من ظهور آثار الغدر والخيانة منهم، حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذوا للحرب آلتها، وتبرأ من الغدر.﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾، الغادرين بمن كان منه في أمان وعهد بينه وبينه أن يغدر به فيحاربه قبل إعلامه إياه أنه له حرب، وأنه قد فاسخه العقد»[2].

ويظهر التوازن كذلك بتقرير الشرع الحكيم لمسالمة الكفار المحاربين إذا جنحوا من الحرب للسلم، وطلبوا الصلح والموادعة من المسلمين، قال سبحانه:﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا ﴾[3].

قال الطبري في تأويل الآية: «وإن مالوا إلى مسالمتك ومتاركتك الحرب إما بالدخول في الإسلام، وإما بإعطاء الجزية، وإما بموادعة ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح ﴿ فَٱجۡنَحۡ لَهَا ﴾، يقول: فمل إليها، وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكه»[4].
وقد صالح النبي ﷺ كفار مكة في الحديبية، وأنزل الله على إثر ذلك سورة الفتح، وقرأها الرسول على عمر ﷺ، حيث ورد في الصحيح" فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ فَقَرَأَهَا رسول اللَّهِ ﷺ على عُمَرَ إلى آخِرِهَا، فقال عُمَرُ: يا رَسُولَ اللَّهِ أو فتح هو؟ قال: نعم"[5]،

فظهر بهذا التوازن الذي قرره القرآن الكريم في التعامل مع المحاربين من الكفار في مختلف الأحوال، فقد جعل لكل حالة ما يتناسب معها من تشريع وتعامل بالقسطاس المستقيم، سواء كان ذلك في الحرب والقتال، أو في نقض المعاهدة والمهادنة، أو في الجنوح للموادعة والمسالمة.

---

(1) سورة الأنفال، الآية ٥٨.

(2) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٠، ص٢٦، ٢٧).

(3) سورة الأنفال، الآية ٦١.

(4) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٠، ص٣٣).

(5) أخرجه البخاري من حديث سَهْلُ بن حُنَيْفٍ. مرجع سابق، **(ج٣، ص١١٦٢، حديث رقم: ٣٠١١)**.

المبحث الرابع
التوازن في الأخلاق

أولا: موافقة الأخلاق للأفعال:

يقرن الشرع الحكيم الأخلاق بالمعاملات، فيجعل توازن الفرد في أفعاله وأقواله نتيجة حتمية لتوازن أخلاقه وسلوكه، ولذلك وبّخ الله تعالى أهل الكتاب من اليهود بسبب مخالفة أقوالهم لأفعالهم، قال سبحانه: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾[1].

قال الطبري بعد أن سرد ما ورد في الآية من تأويلات للعلماء: «وجميع الذي قال في تأويل هذه الآية من ذكرنا قوله: متقارب المعنى؛ لأنهم وإن اختلفوا في صفة البر الذي كان القوم يأمرون به غيرهم الذين وصفهم الله بما وصفهم به، فهم متفقون في أنهم كانوا يأمرون الناس بما لله فيه رضا من القول أو العمل، ويخالفون ما أمروهم به من ذلك إلى غيره بأفعالهم.

فالتأويل الذي يدل على صحته ظاهر التلاوة إذاً: أتأمرون الناس بطاعة الله وتتركون أنفسكم تعصيه ؟ فهلا تأمرونها بما تأمرون به الناس من طاعة ربكم! معيرهم بذلك ومقبحا إليهم ما أتوا به»[2].

ونظير هذه الآية ما خاطب الله به عباده المؤمنين، وحذرهم من التخلق بمثل هذا الخلق الذميم، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾[3].

قال الشنقيطي: «وقد استُدِل بالآية من عموم لفظها على الإنكار على كل من خالف قوله فعله، سواء في عهد أو وعد أو أمر أو نهي»[4].

ولا شك أن موافقة القول للفعل خُلق سوي، وهو خلق الأنبياء، حيث قال الله

---

(1) سورة البقرة، الآية ٤٤.

(2) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١، ص٢٥٩).

(3) سورة الصف، الآية ٢، ٣.

(4) الشنقيطي: أضواء البيان. مرجع سابق، (ج٨، ص١٠٥).

عن قيل نبيه شعيب-عليه السلام- لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[1]، فتبين أن مخالفة المرء لما ينهى عنه اضطراب في أخلاقه، وأن موافقته لما يأمر به اعتدال وتوازن. وقد امتدح الله تعالى نبيه محمداً -ﷺ- بحسن الخلق، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وسُئلت عائشة - رضي الله عنها - عن خُلُقِ رسول اللَّهِ ﷺ، فقالت: "كان خُلُقُهُ الْقُرْآنُ"[3].

قال البغوي في تفسيره: « قال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله، وينتهي عنه من نهي الله. والمعنى: إنك لعلى الخلق الذي أمرك الله به في القرآن»[4].

وهذا هو عين التوازن لما يحمل من معنى الاستقامة الكاملة على الشرع الحنيف، حيث لم يُنقِص ولم يزد على ما أُمر به ونُهي عنه.

وقد امتدح الله تعالى الصادقين من المؤمنين وبشرهم بحسن الجزاء؛ لأنهم وفوا ما التزموا به وما عاهدوا الله عليه من الوفاء قولا وعملا. وبالمقابل توعد من خالف قوله فعله ووصفه بالنفاق، فقال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾[5].

وجعل الله تعالى نقض العهد والميثاق خلق فاسد ومعاملة ممقوتة، ولذلك جاء ذم الناكثين العقود والخائنين العهود، في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[6]، وقوله

---

(1) سورة هود، الآية ٨٨.

(2) سورة القلم، الآية٤.

(3) أخرجه أحمد في مسنده. مرجع سابق، (ج٦، ص١٦٣، حديث رقم: ٢٥٣٤١)، وأورده محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي في الأدب المفرد. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، (ج١، ص١١٥، حديث رقم: ٣٠٨)، وخرجه الألباني في مختصر العلو للعلي الغفار للحافظ الذهبي. المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ، (ج١، ص ٥٨).

(4) البغوي: معالم التنزيل. مرجع سابق، (ج٤، ص٣٧٥).

(5) سورة الأحزاب، الآية ٢٣، ٢٤.

(6) سورة الرعد، الآية ٢٥.

-جل وعلا-: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾[1]، وأمر الله تعالى في المقابل بالخُلق القويم المتمثل: بالوفاء بالعهود والمواثيق والعقود، وجعل ذلك من صميم المعاملة التي يجب أن تكون بين المسلمين. بل حتى ولو كانت مع الكافرين، قال الله -جل وعلا-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾[2]، وقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ ﴾[3]، وقال: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾[4].

فظهر بهذا أن الأخلاق ملازمة للأفعال والأقوال، وأنها تفصح عن توازن المرء من عدمه، فمتى وافق قول المرء فعله كان خلقه حميدا وسلوكه مستقيما متوازنا.

ثانيا: الخلق الحميد وسط بين خلقين ذميمين:

سلك القرآن الكريم طريقا واضحا في بيان التوازن الأخلاقي، فأخبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾[5].

فجعل أساس قيام الأخلاق على العدل الذي يبتعد كُليَّةً عن طرفي الإفراط والتفريط، حيث ذم الأخلاق الذميمة التي خرجت عن المنهج المتوازن إلى الغلو والإفراط، وذم في المقابل الأخلاق الذميمة التي تجاوزت حد التوازن والاعتدال إلى التفريط والتقصير، وأثنى على الأخلاق الحميدة التي مثلت السلوك المتوازن بين الطرفين، فالتواضع - مثلا- خلق متوازن بين الكبر والفخر من طرف، وبين الذل والمهانة من طرف آخر. وقد جاءت العديد من الآيات تدعوا إليه وتثني على من تخلق به، فقد أمر الله تعالى رسوله-ﷺ- بخفض جناحه للمؤمنين، فقال: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[6]، وأثنى به على عباده، فقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾[7]، وبيَّن تأدب النبي-

---

(1) سورة المائدة، الآية ١٣.

(2) سورة المائدة، الآية ١.

(3) سورة التوبة، الآية ٤.

(4) سورة الإسراء، الآية ٣٤.

(5) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

(6) سورة الشعراء، الآية ٢١٥.

(7) سورة الفرقان، الآية ٦٣.

ﷺ- وصحابته به، فقال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[1]، وجاء في قوله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾[2] بيان صريح على أن المشي باعتدال من دون فخر ولا خيلاء، ومن دون دبيب ولا مماوتة ولا خمول، هو المشي الممدوح الذي يمثل التوازن في هذا الخلق بوضوح كامل.

وعند النظر إلى علاقة هذا الخلق بطرفي الإفراط والتفريط فيه، يتبين أن التفريط بالتواضع يتجه بصاحبه إلى الكبر الذي يرد الحق ويغمط الناس، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾[3].

قال ابن كثير في تأويل قوله: ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾، «أي ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقارٌ لمن جاءهم به»[4].

ومما ورد في ذم خلق الكبر قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾[5]، و-أيضا- ما قال الله تعالى عن قيل لقمان لابنه وهو يوصيه محذرا له من هذا الخُلق: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[6].

قال الطبري: «وتأويل الكلام: ولا تُعرض بوجهك عمن كلمته تكبرا واستحقارا لمن تكلمه. وأصل الصعر: داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها، فيشبه به الرجل المتكبر على الناس...، وقوله: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ يقول: ولا تمش في الأرض مختالا»[7].

---

(1) سورة االفتح، الآية ٢٩.

(2) سورة لقمان، الآية ١٩.

(3) سورة غافر، الآية ٥٦.

(4) ابن كثير: تفسيرالقرآن العظيم. (ج٤، ص٨٥)، وانظر: الآلوسي: روح المعاني. مرجعان سابقان، (ج٢٤، ص٧٨).

(5) سورة الإسراء، الآية ٣٧.

(6) سورة لقمان، الآية ١٨.

(7) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٢١، ص٧٤، ٧٦).

وأما مجاوزة الإفراط في التواضع فإنه يتجه بصاحبه إلى الذل والمهانة؛ لأن هذا الخلق يفقد هويته مع الضعف والاستكانة أمام ما يمليه الأعداء، كالذلة التي عاقب الله بها بني إسرائيل وأخبر عنها بقوله سبحانه:﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ ﴾[1]، وبقوله:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2].

وبالمقابل يحتفظ التواضع بهويته كاملة مع القوة والحزم، قال تعالى واصفا المؤمنين بما هم عليه من هذا الخلق الرفيع: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [3].

قال البغوي: «يعني أرقاء رحماء لقوله عز وجل:﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[4]، ولم يرد به الهوان بل أراد أن جانبهم لين على المؤمنين. وقيل: هو الذل، من قولهم: دابة ذلول. يعني: أنهم متواضعون»[5].

وقال أبو السعود: «﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: جمع ذليل لا ذلول، فإن جمعه ذلل: أي أرقاء رحماء متذللين ومتواضعين لهم، واستعماله بعلى: إما لتضمين معنى العطف والحنو، أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم، أو لرعاية المقابلة بينه وبين ما في قوله تعالى:﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، أي أشداء متغلبين عليهم، من عزّه: إذا غلبه»[6].

فتبين أن الذلة التي وقعت على بني إسرائيل: هي المجافية للتواضع؛ لأنها مقترنة بالضعف والمهانة والصغار أمام الأعداء. وأن الذلة التي وصف الله بها المؤمنين هي حقيقة التواضع؛ لأنها متضمنة للرحمة، وخفض الجناح للمؤمنين الذين يبادلونهم نفس الخلق مع قوتهم وعلو قدرهم. وهي بهذا الوصف تمثل الخلق الأعدل الذي يبتعد بالمرء

---

(1) سورة آل عمران، الآية ١١٢.

(2) سورة الأعراف، الآية ١٥٢.

(3) سورة المائدة، الآية ٥٤.

(4) سورة الإسراء، الآية ٢٤.

(5) البغوي: معالم التنزيل. مرجع سابق، (ج٢، ص٤٦).

(6) أبو السعود: إرشاد العقل السليم . (ج٣، ص٥١)، وانظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مرجعان سابقان، (ج٦، ص٢٢٠).

عن طرف الإفراط بقدر ما يبتعد به عن طرف التفريط، فيتبرأ من خلقي الذل والكبر في آن واحد. وهذا توازن بين في هذا الخلق.

وبالنسبة لعموم الأخلاق الحميدة، فإنها مبنية – أيضا– على أساس التوازن الذي يجعل كل واحد منها يتوسط خلقين مذمومين مجافيا لطرفي الشر فيه.

قال ابن القيم[1]: «كل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين وهو وسط بينهما وطرفاه خلقان ذميمان ... – و– النفس متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين ولابد. فإذا انحرفت ... عن خلق الحياء انحرفت إما إلى قحة وجرأة، وإما إلى عجز وخور ومهانة، بحيث يُطمِع في نفسه عدوه ويفوته كثير من مصالحه. ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء، وإنما هو المهانة والعجز وموت النفس. وكذلك إذا انحرفت عن خلق الصبر المحمود انحرفت إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط، وإما إلى غلظة كبد وقسوة قلب وتحجر طبع»[2].

ثالثا: في دفع الخلق السيئ بالحسن:

جوز الشارع الحكيم للمعتدى عليه أن يقتص من المعتدي بالمثل، سواء كان ذلك في فعل أو قول، وهذا توازن لا خلاف عليه. إلا أن هناك توازنا آخر في الخُلق أَمَر الله تعالى عباده المؤمنين أن يتخلقوا به لما يمثله من سمو ورفعة، وهو مقابلة الإساءة بالإحسان، ودفع الخلق السيئ بالحسن، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[3].

---

(1) هو أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي، ابن قيم الجوزية، ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة، لازم الشيخ ابن تيمية وأخذ عنه علما جما، له مصنفات كثيرة منها: زاد المعاد في هدي خير العباد، وسفر الهجرتين وباب السعادتين، توفي ليلة الخميس ثالث عشر شهر رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، ودفن بمقبرة الباب الصغير من دمشق عند والديه رحمهما الله. أنظر: محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي: الرد الوافر. تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ، (ج١/ص٦٨)، وعبد القادر بدران: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال. تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت ، ط٢، ١٩٨٥م، (ج١/ص٢٤٠-٢٤٢)

(2) أبو عبد الله الزرعي: مدارج السالكين. مرجع سابق، (ج٢، ص٣٠٩، ٣١٠).

(3) سورة الرعد، الآية ٢٢.

قال ابن كثير في تأويل هذه الآية: «أي يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا، واحتمالا، وصفحا، وعفوا»[1].

وقال الشوكاني في تأويله: «﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، أي يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه...» [2].

ونظير هذه الآية قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [3]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[4].

قال أبو السعود في تأويل الدفع بالتي هي أحسن المذكور آنفا في الآية: «هو الصفح عنها والإحسان في مقابلتها، لكن لا بحيث يؤدي إلى وهن في الدين ...»[5].

وقال السعدي: «هذا من مكارم الأخلاق التي أمر الله رسوله بها، فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾، أي إذا أساء إليك أعداؤك بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء»[6].

فظهر التوازن جليا في هذا الخلق الرفيع من خلال دفع الخلق السيئ بالخلق الحسن، ولا يفهم من هذا أن من لوازم حسن الخلق مداهنة الباطل ومصانعته، فقد نهى الله رسوله -ﷺ- أن يفعل ذلك، فقال: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾[7].

---

(1) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٢، ص٥١١).

(2) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٣، ص٧٨).

(3) سورة المؤمنون، الآية ٩٦.

(4) سورة فصلت، الآية ٣٤.

(5) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق، (ج٦، ص١٤٩).

(6) السعدي: تيسير الكريم الرحمن. مرجع سابق، (ج١، ص٥٥٨).

(7) سورة القلم، الآية ٩، ١٠.

قال ابن كثير في تأويل الآية: «قال ابن عباس: لو ترخص لهم فيرخصون. وقال مجاهد: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ ﴾، تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق»[1].

فهذه مداهنة محرمة، وهي غير المداراة المشروعة التي دل عليها حديث عائشة – رضي الله عنها– : أَنَّ رَجُلاً اسْتَأْذَنَ على النبي –ﷺ– فلما رَآهُ قال: بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابن الْعَشِيرَةِ. فلما جَلَسَ تَطَلَّقَ النبي –ﷺ– في وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إليه، فلما انْطَلَقَ الرَّجُلُ قالت له عَائِشَةُ: يا رَسُولَ اللَّهِ. حين رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ له كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ في وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إليه! فقال رسول اللَّهِ–ﷺ–: "يا عَائِشَةُ مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا؟ إِنَّ شَرَّ الناس عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يوم الْقِيَامَةِ من تَرَكَهُ الناس اتِّقَاءَ شَرِّهِ"[2].

فهذا الحديث دل على جواز مشروعية المداراة لما لها من أثر في دفع الشر والسوء من غير استنقاص للدين، وهي بخلاف المداهنة التي فيها ترخص وتجاوز لما نهى الله عنه، وعند التأمل في مداراة النبي–ﷺ– للرجل كما في الحديث، فإنه–ﷺ– لم يزد على حسن معاشرته والتبسط في وجهه، وهذا من عظيم خلقه ﷺ.

رابعا: مقابلة الخلق الحسن بالأحسن منه أو بمثله:

إذا كان الشرع الحكيم قد أمر بدفع الخلق السيئ بالخلق الحسن، فقد أمر بمقابلة الخلق الحسن بأحسن منه أو مقابلته بمثله على أقل تقدير، وإلى هذا جاء بيان الراغب للعدل والإحسان الذين يرتكز عليهما خلق المسلم بقوله:

«... فإن العدل: هو المساواة في المكافأة إن خيرا فخير وإن شرا فشر. والإحسان: أن يقابل الخير بأكثر منه والشر بأقل منه»[3].

ولهذا ندب الشرع الحكيم إلى خلق الإحسان، لأنه أعلى مراتب العدل، ولم يسمح بالنزول عن خلق العدل؛ لأنه ليس هناك أدنى منه إلا الجور، فهو يمثل التطابق بين الحق والاستحقاق من جميع الجوانب من دون زيادة أو نقصان.

وتأمل في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ ﴾[4]، فإن الآية

---

(1) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٤، ص٤٠٤).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٥، ص٢٢٤٤، حديث رقم: ٥٦٨٥).

(3) أبو القاسم الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن. مرجع سابق، (ج١، ص٣٢٥).

(4) سورة النساء، الآية ٨٦.

تدعوا بوضوح كامل إلى مقابلة الخلق الحسن بأحسن منه، أو برده بمثله على أقل تقدير، وهذا هو ما بينه الطبري في تأويله لهذه الآية، حيث قال:

«يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ ﴾، إذا دعي لكم بطول الحياة والبقاء والسلامة، ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾، يقول: فادعوا لمن دعا لكم بذلك بأحسن مما دعا لكم، ﴿ أَوْ رُدُّوهَا ﴾، يقول: أوردوا التحية»[1].

وقال الرازي: «اعلم أن لفظ التحية... كناية عن الإكرام، فجميع أنواع الإكرام يدخل تحت لفظ التحية»[2].

ولا شك أن مقابلة الخلق الحسن بالحسن يمثل توازنا بينا، ومقابلته بالخُلق الأحسن هو مبالغة في الوفاء، وهو في معنى التوازن أبلغ؛ لما يمثله من الأفضلية في الرد والجزاء. وهذا هو ما كان عليه خُلق رسول الله -ﷺ- الذي أُمرنا بالتأسي به، كما في قوله-جل وعلا-: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[3]، فقد جاء في الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قال: كان لِرَجُلٍ على النبي -ﷺ- سِنٌّ من الإِبِلِ، فَجَاءَهُ يَتَقَاضَاهُ، فقال: "أَعْطُوهُ. فَطَلَبُوا سِنَّهُ فلم يَجِدُوا له إلا سِنًّا فَوْقَهَا. فقال: أَعْطُوهُ، فقال: أَوْفَيْتَنِي أَوْفَى الله بِكَ. قال النبي-ﷺ-: إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً"[4].

ويمكن أن يؤخذ من عموم قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[5]، معنى مجازاة المحسن بأحسن من إحسانه سواء كان ذلك في قول أو فعل، فذلك من الأخلاق الحميدة. ولا يخفى مدلول التوازن في تقرير الجزاء على الإحسان بالإحسان.

المبحث الخامس

التوازن التشريعي في التكليف

---

(1) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٥، ص١٨٨، ١٨٩).

(2) الرازي: التفسير الكبير. مرجع سابق، (ج١٠، ص١٧١).

(3) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٢، ص٨٠٩، حديث رقم: ٢١٨٢).

(5) سورة يونس، الآية ٢٦.

أولاً: التقدير الحكيم في توقيت الخطاب للمكلف:

يقرر الشرع الحنيف توازنا دقيقا في توقيت الخطاب للمكلف، فهو لا يخاطبه بالأمر والنهي إلا إذا بلغ سن البلوغ؛ لأنها أول مظنات الرشد التي بها يستطيع أن يحسن التصرفات في أموره المتعددة، ويقدِّر لكل أمرٍ وضعه المناسب على القدر الذي تقتضيه الحاجة والمصلحة، وقد ورد ذكر هذا التوقيت في القرآن الكريم على سبيل أنه الحد الذي يبدأ المكلف فيه بتحمل التكاليف والمسؤوليات، كما قال سبحانه عن اختبار رشد اليتامى في هذه السن: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾[1].

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾، واختبروا عقول يتاماكم في أفهامهم، وصلاحهم في أديانهم، وإصلاحهم أموالهم – ثم قال– وأما قوله: ﴿ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ ﴾، فإنه يعني: إذا بلغوا الحلم»[2].

وورد توقيت الخطاب بالبلوغ أيضا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[3]، فقد أوجب الشرع الحكيم على من بلغ من الأطفال أن يستأذنوا، وأما قبل البلوغ فإنهم غير مخاطبين بالأحكام، ولذلك جاء قبل الآية السابقة في سورة النور لفظ ﴿ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ ﴾[4]؛ لأنه يتناسب مع مرحلة ما قبل البلوغ التي لا تخاطب الأطفال بالتكليف، ثم جاء لفظ ﴿ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ ﴾، الدال على الوجوب المقترن بسن البلوغ.

ولما كان البلوغ هو السن الذي يفصل بين سقوط التكليف ووجوبه، فقد راعى

---

(1) سورة النساء، الآية ٦.

(2) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٥١، ٢٥٢).

(3) سورة النور، الآية ٥٩.

(4) سورة النور، الآية ٥٨.

الشرع الحكيم وجود العقل فيه بإيناس الرشد؛ لأن العقل يكون عنده على الغالب لا على العموم، لوجود من ينقص عقله حتى ولو كان بالغا.

«وقد دل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾[2] على سقوط التكليف لأول من يعقل؛ لأنه يخرج للفهم بأدنى عقله ويثقل عليه الأداء إلى أن يعتدل عقله وقدرته، فيشق عليه الفهم والعمل به. ثم وقت الاعتدال متفاوت فى جنس بنى آدم فلا يمكن الوقوف عليه إلا بعد تجربة وتكليف عظيم. فوقَّت الله تعالى بحال تعتدل لديه العقول فى الأغلب على سلامة الفطرة من الآفات وهو البلوغ، فقام البلوغ شرعا مقام اعتدال العقل، فتوجه لديه الخطاب وإن لم يعتدل، وسقط قبله وإن اعتدل دفعا للحرج الذي كان يلحقنا بالوقوف على الاعتدال بالتجربة لكل صبى»[3].

والغالب في سن البلوغ هو خمس عشرة سنة. فعند هذه السن يكتمل البلوغ، ويكتمل العقل، وتتسع الشهوات، ويشتد البدن. فناسب أن يتزامن التكليف معها ليأخذ بزمامها ويرد عن الشهوات جماحها.

وقد جاء في حديث عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما –: "أن النبي –ﷺ– عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه، وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه"[4].

فدل الحديث على أن سن خمس عشرة سنة هي الحد الفارق بين الصِّغَر والكِبَر.

«وقد اشتمل حديث "رفع القلم عن ثلاثة"[1] على روايات ثلاث في جريان القلم

---

(1) سورة الحج، الآية ٧٨.

(2) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

(3) أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني: قواطع الأدلة في الأصول. تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، بتصرف، (ج٢، ص٣٧٣، ٣٧٤).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه. (ج ٤، ص١٥٠٤، حديث رقم: ٣٨٧١)، ومسلم في صحيحه. مرجعان سابقان، (ج ٣، ص١٤٩٠، حديث رقم: ١٨٦٨).

على الصبي، وهي قوله: "وعن الصغير حتى يكبر"، و"حتى يعقل"، و"حتى يحتلم ".
فهذه المعاني الثلاثة تحصل عند خمس عشرة سنة:
فالكبر: إشارة إلى قوته وشدته، واحتماله التكاليف الشاقة، والعقوبات على تركها.
والعقل: المراد به الفكرة، فإنه وإن ميز قبل ذلك لم يكن فكره تاما، وتمامه عند هذا السن. وبذلك يتأهل للمخاطبة وفهم كلام الشارع، والوقوف مع الأوامر والنواهي.
والاحتلام: إشارة إلى انفتاح باب الشهوة العظيمة التي توقع في الموبقات، وتجذبه إلى الهوى في الدركات. وجاء التكليف كالحَكَمة في رأس البهيمة يمنعها من السقوط»[٢].

ويتضح بهذا التوازن في التوقيت الدقيق بين خطاب الشارع الحكيم، وبين سن الاستيعاب والتحمل عند المكلف، فخطاب الشارع لم يتأخر عن سن التكليف فيترك المكلف زمناً بدون خطابٍ وتوجيهٍ وتحملٍ للتبعات، ولم يخاطبه كذلك قبل سن التكليف فيثقل عليه الأداء ويعسر عليه الفهم، بل اختار السن المناسبة التي تفصل وتتوسط مرحلتي الصغر والكبر، والتي يكون قد تأهل عندها المكلف لتلقي خطاب الشارع الحكيم، وبهذا يكون قد اتضح المعنى المراد بالتوازن التشريعي في توقيت الخطاب للمكلف، وتناسبه مع سن التكليف وهو البلوغ.

ثانيا: التكليف على قدر الوسع والطاقة:

لقد جاءت التكاليف في شرع الله الحكيم مقدرة على وسع النفس وطاقتها، قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾[٥]، وقال جل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: (ج ٦، ص١٤٤، حديث رقم: ٢٥١٥٧)، وابن ماجه في سننه: (ج١،ص٦٥٨، حديث رقم: ٢٠٤١)، وأبو داود في سننه: (ج٤، ص١٣٩، حديث رقم: ٤٣٩٨)، وأوره الحاكم في المستدرك على الصحيحين: (ج٢، ص٦٧، حديث رقم: ٢٣٥٠)، وقال عنه: صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في إرواء الغليل. مراجع سابقة، (ج٢، ص٤، حديث رقم: ٢٩٧).

(٢) عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: الأشباه والنظائر. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، بتصرف يسير، (ج١، ص٢٢٤).

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

(٥) سورة الأعراف، الآية ٤٢.

وعـلا: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[1]، فالآيـات تبـين التـوازن التشـريعي القـائم علـى أساس الوسع والطاقة عند المكلف في تحمله تبعات الخطاب.

قال الزمخشري: «الوسع: ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه، أي لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود»[2].

«وتأمل قوله –عز وجل–: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ كيف تجد تحته أنهم في سعة ومنحة من تكاليفه لا في ضيق وحرج ومشقة، فإن الوسع يقتضي ذلك، فاقتضت الآية: أنما كلفهم به مقدور لهم من غير عسر لهم ولا ضيق ولا حرج، بخلاف ما يقدر عليه الشخص، فإنه قد يكون مقدورا له ولكن فيه ضيق وحرج عليه»[3].

فالإنسان يُلزم نفسه في هذه الحياة بكثير من الالتزامات مع ما فيها من ضيق وحرج ومشقة، ولا يمنعه ذلك من القيام بأدائها وبذل الجهد في تحصيلها.

«بل ما يسع الإنسان هو مباح له وما لم يسعه ليس مأمورا به، فما يسعه قد يؤمر به. وأما ما لا يسعه فهو المباح، يقال: يسعني أن افعل كذا، ولا يسعني أن افعل كذا. والمباح: هو الواسع، ومنه باحة الدار، فالمباح لك أن تفعله وهو يسعك ولا تخرج عنه، ومنه يقال: رحم الله من وسعته السنة فلم يتعدها الى البدعة، أي فيما أمر الله به وما أباحه ما يكفي المؤمن المتبع فى دينه ودنياه لا يحتاج أن يخرج عنه إلى ما نهى عنه، وأما ما كلفت به فهو ما أمرت بفعله، وذلك يكون مما تسعه أنت لا مما يسعك هو، وقد يقال: لا يسعني تركه بل تركه محرم»[4].

ولهذا كانت جميع التكاليف الشرعية من الأوامر، والنواهي داخلة في نطاق قدرة المكلف المعتادة له، فهولا يبذل من الجهد للإتيان بها وفعلها أكثر مما يبذله في تحصيل شهوة من الشهوات التي يعتادها، بل القيام بالتكاليف الشرعية لا يتطلب

---

(1) سورة المؤمنون، الآية ٦٢.

(2) الزمخشري: الكشاف. مرجع سابق، (ج١، ص٣٥٩).

(3) ابن تيمية: مجموع الفتاوى. مرجع سابق، (ج١٤، ص١٣٧، ١٣٨).

(4) المرجع نفسه، (ج١٤، ص١٠٨، ١٠٩).

جهداً منه مثلما تتطلبه منه أدنى شهوة من شهواته، ولذلك قال الله تعالى:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾[1].

وأما ما يخرج بالنفس عن مدى القدرة والطاقة ويضعها تحت طائلة العسر والحرج، فإن الشارع الحكيم قد رفع عنها هذه الآصار والأعسار، قال تعالى:﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[2]، وقال سبحانه:﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾[3]، وقال جل وعلا: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[4]، وقال عز وجل:﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[5].

ولا يختلف اثنان على أن في التكاليف الشرعية نوع من الكلفة على النفس وفيها شيء من المشقة عليها، ولكنها بالمقارنة مع ما يعتاده الناس من أعمال مستمرة في طلبهم للمعاش، فإنها لا تعتبر شاقة عليهم، بل ترك الأعمال اليومية في طلب التكسب يعد تكاسلا، وصاحبه مذموم عند الناس جميعا؛ لأن طلب التكسب عند عامة الناس من الأمور المعتادة لهم رغم ما في ذلك من الجهد والمشقة.

وكذلك الأمر بالنسبة للتكاليف الشرعية، فإنها من الأمور المعتادة التي تسعها النفس وتطيقها، وأن ما تتطلبه هذه التكاليف من جهد ومشقة لا يعتبر في العادة كذلك.

ولا يخفى ما في هذا من توازن بيّن في تقدير التكليف على قدر الوسع، فإن الشارع الحكيم جعله في مدى الطاقة التي هي في وسع الناس وما يعتادونه من مشقات، فهو متعادل ببعده عن الإفراط في المشقة التي تعجز عنها الطاقة والقدرة للمكلف، ومتعادل كذلك ببعده عن التفريط في الوسع بحيث يسقط عنه كل تكليف فيه مشقة معتادة لا تسمى في العادة مشقة، وبهذا يكون قد اتضح التوازن في تقدير التكليف على قدر الطاقة والوسع.

---

(1) سورة الطلاق، الآية ٧.

(2) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

(3) سورة المائدة، الآية ٦.

(4) سورة الحج، الآية ٧٨.

(5) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

ثالثا: التوازن في إسقاط التكليف عمَّن لا يستوعبه:

ينظر الشرع الحكيم بمنهجية متوازنة إلى من يعجز عن إدراك تكاليفه الشرعية، فيسقطها عنه نتيجة لذلك ولا يُلزمه بها؛ لأنه تكليف فوق الطاقة والوسع والاستطاعة، والله تعالى يقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[1]، ويقول جل وعلا: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[2]، ويقول سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾[3].

وقد جاء في حديث النبي -ﷺ-: "رفع القلم عن ثلاثة "[4]، وهم: الصبي، والمجنون، والنائم أن الشرع الحكيم أسقط عنهم التكليف؛ لأنهم ليسوا في مستوى التلقي للخطاب، فالمخاطب في فهمه واستيعابه هو دون مستوى الخطاب الموجه له، فلذلك تأخر التكليف إلى وقت الفهم والاستيعاب، وهو بلوغ الصبي وتعقله، وعودة المجنون إلى صوابه ورشده، وتيقظ النائم وتنبهه من نومه ليستجمع فكره وعقله. وحينها يخاطب المكلف بمقتضى التكليف، ويكون التوازن في هذه الأحوال ظاهرا وبينا لتلاؤم استيعاب المكلف للخطاب الشرعي.

ولذلك فـ«لابد أن يكون المكلف عاقلا يفهم الخطاب، فلا يصح خطاب الجماد والبهيمة، بل خطاب المجنون والصبي الذي لا يميز؛ لأن التكليف مقتضاه الطاعة والامتثال، ولا يمكن ذلك إلا بقصد الامتثال. وشرط القصد: العلم بالمقصود والفهم للتكليف، فكل خطاب متضمن للأمر بالفهم، فمن لا يفهم كيف يقال له: إفهم؟! ومن لا يسمع الصوت كالجماد كيف يُكَلَّم ؟! وإن سمع الصوت كالبهيمة ولكنه لا يفهم فهو كمن لا يسمع. ومن يسمع وقد يفهم فهماً ما لكنه لا يعقل ولا يثبت كالمجنون وغير المميز فمخاطبته ممكنة، لكن اقتضاء الامتثال منه مع أنه لا يصح

---

(1) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

(2) سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

(3) سورة الأعراف، الآية ٤٢.

(4) أنظر تخريجه ص٢٤٠

منه قصد صحيح غير ممكن»[1].

وقد ورد عن النبي-ﷺ-: "إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه "[2].

فالغافل هو في حكم الناسي، وتكليف المخطئ بعدم الوقوع في الخطأ فيه حرج ومشقة، فراعى الشارع الحكيم هذا الأمر فوُضع الخطأ عمن لا يقصده ولا يتعمده، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[3].

«ولهذا كانت الأقوال في الشرع لا تعتبر إلا من عاقل يعلم ما يقول و يقصده. فأما المجنون والطفل الذي لا يميز، وكذلك النائم إذا تكلم فى منامه، فأقوالهم كلها لغو فى الشرع. لا يصح منه إيمان ولا كفر، ولا عقد من العقود، ولاشيء من الأقوال باتفاق المسلمين»[4].

فمتى كان التوازن قائماً باكتمال العقل والرشد والبلوغ عند المكلف في مقابلة الخطاب الشرعي كان التكليف معتبرًا، والمخاطب مطالب بالامتثال.

ومتى كان المكلف عاجزا في فهمه واستيعابه، ودون مستوى الخطاب الشرعي الموجه له، فإن الشرع الحكيم يقابل ذلك الرفع الحاصل في قدرته على الفهم والاستيعاب برفع مماثل للتكليف عنه، وعدم مخاطبته به. ولا يخفى ما في هذا من توازن بيّن، وتقدير حكيم.

رابعا: التوازن التشريعي في تقدير الرخصة على قدر المشقة:

لاشك أن المكلف يمر بأحوال متعددة من الشدائد والمشاق، وقد قدَّر الشارع

---

(1) محمد بن محمد الغزالي أبو حامد: المستصفى في علم الأصول. تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ، (ج١، ص٦٧).

(2) أخرجه ابن ماجه في سننه من حديث أبي ذرﷺ: (ج١، ص٦٥٩، حديث رقم: ٢٠٤٣)، وابن حبان في صحيحه: (ج١٦، ص٢٠٢، حديث رقم: ٧٢١٩)، والطبراني في المعجم الكبير: (ج٢، ص٩٧، حديث رقم: ١٤٣٠)، والبيهقي في السنن الكبرى: (ج٧، ص٣٥٦، حديث رقم: ١٤٨٧١)، وأورده الألباني في مشكاة المصابيح. مراجع سابقة، (ج٣، ص٣٧٢، حديث رقم: ٦٢٨٤)، [١١]، وقال عنه: صحيح لطرقه.

(3) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

(4) ابن تيمية: مجموع الفتاوى. مرجع سابق، (ج١٤، ص١١٥).

الحكيم الأحكام الشرعية التي تتوازن وتتناسب مع طاقة المكلف وقدرته في مختلف الأحوال بهدف التيسير عليه ودفع العسر عنه، قال جل وعلا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[1]، فشرع العديد من الرخص، كالتيمم عند عدم الماء، قال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[2]، وقصر الصلاة في السفر: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾[3]، وكإفطار الصائم فى المرض والسفر: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[4].

فجاء الترخيص في هذه العبادات ملائما للمشقة التي طرأت على المكلف. وكذلك الحال في إباحة المحرمات عند الضرورات، كإباحة أكل الميتة للمضطر إذا خاف على نفسه التلف جوعا، كما في قوله سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5].

قال أبو السعود في تأويله لهذه الآية: «أي فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾، أي مجاعة يخاف معها الموت أو مباديه، ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾، قيل: غير مائل ومنحرف إليه بأن يأكلها تلذذا أو مجاوزًا حد الرخصة أو ينتزعها من مضطر آخر، كقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[6]، لا يؤاخذه بذلك»[7].

وفي النهي –أيضا– عن البغي والتجاوز لحد الرخصة في الأكل من المحرم

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

(2) سورة النساء، الآية ٤٣.

(3) سورة النساء، الآية ١٠١.

(4) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

(5) سورة المائدة، الآية ٣.

(6) سورة النحل، الآية ١١٥.

(7) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق، (ج٣، ص٧).

معنى التوازن الذي قرره الشارع الحكيم.

قال الشنقيطي: «أجمع العلماء على أن المضطر له أن يأكل من الميتة ما يسد رمقه ويمسك حياته، وأجمعوا أيضا على أنه يحرم عليه ما زاد على الشبع»[1] .

فهذا ترخيص محدود مقدر بقدر الحاجة التي ترفع الاضطرار وفق توازن دقيق يراعي طاقة النفس ومقدرتها على التحمل، إذ لم يحرِّج عليها بالمنع فتهلك، ولم يبح لها الاستمتاع بالأكل من المحرم على الإطلاق زيادة على حاجتها، بل سمح بالقدر الذي يرفع عنها الحرج ويدفع عنها الهلاك.

وكذلك الأمر في الترخص في مسألة الإكراه على التلفظ بكلمة الكفر، فقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[2].

قال ابن كثير: «فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله»[3].

ومما لا شك فيه أن التلفظ بالكفر ذنب عظيم، لكن الله تعالى رخص للمُكره أن يتلفظ به، واستثنى قائله من الكفر مادام قلبه مطمئن بالإيمان، كما دلت على ذلك الآية ليدفع عن نفسه أذى محققا لا يستطيع احتماله.

وهذا الترخص الذي جوزه الشرع الحكيم فيه توازن وتعادل مع المشقة التي لا يمكن دفعها إلا به. ومع هذا فلو أخذ المُكره بالحزم وامتنع عن إعلان الكفر والنطق به، وخُيّر بين القتل فاختاره، فقد نقل القرطبي الإجماع على أفضليته، حيث قال:

و«أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر، فاختار القتل أنه أعظم أجرا عند الله ممن اختار الرخصة»[4].

---

(1) الشنقيطي: أضواء البيان. مرجع سابق، (ج١، ص٦٢).

(2) سورة النحل، الآية ١٠٦.

(3) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٢، ص٥٨٨)، وانظر: محمد بن إدريس الشافعي أبو عبدالله: أحكام القرآن. تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ، (ج١، ص٢٩٩)، وشمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة ابن شهاب الدين الرملي الشهير بالشافعي الصغير: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج. دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، (ج٥، ص٧١).

(4) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. مرجع سابق، (ج١٠، ص١٨٨).

وذلك لما يترتب على هذه الصلابة وقوة الشكيمة من إعزاز لدين الله وتمكين له في صدور المؤمنين، ولما في ذلك من إذلال للكافرين وتصغيراً وتهويناً لشأنهم وكبحاً لجماح صدورهم في إرادتهم الاعتداء على المسلمين واستباحة بيضتهم.

وبالمقابل فإنه بثباته وصبره على هذه المشقة القصوى، وهي الموت إعزازاً لدين الله تعالى، فإن الله تعالى جازاه على ذلك بالحياة عنده في الجنة عقيب موته، وجعله من الشهداء في سبيله، قال جل وعلا: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾[1].

وأما بالنسبة لمن أكره على الأفعال المحرمة، «فما أبيح منها بالإكراه: فهو متجاوز عنه، كالأكل في نهار رمضان، والعمل في الصلاة، ولبس المخيط في الإحرام ونحو ذلك، وما لا يباح بالإكراه: فهو مؤاخذ به كقتل المعصوم، وإتلاف ماله»[2].

فالترخص يمتنع بدفع الاعتداء عن النفس في مقابل إيقاعه على الآخرين؛ لأنه ليس لأحد أن يصرف ذلك عن نفسه ليوقعه على غيره، إذ ليس غيره بأولى منه في تحمل ذلك، ولا شك أن فعل هذا ظلم محض لا يقبله أحد، فليس لأحد أن يتلف مال غيره ليحفظ ماله، وليس لأحد أن يقتل غيره ليحيي نفسه.

وهكذا يتبين أن مختلف الرخص في التشريع الحكيم مقدرة تقديراً دقيقا بحيث تتوازن مع مختلف الأحوال التي يمر بها المكلف، فإذا كانت المشقة كبيرة كانت الرخصة بقدرها، وإذا كانت المشقة دون ذلك كانت الرخصة بحسبها كذلك، كما هو معروف في سائر الرخص الشرعية المتعددة، وذلك وفق تعادل دقيق يتوازن فيه تخفيف التكليف الشرعي بقدر العسر والمشقة النازلة بالمكلف على حد سواء من دون أن يكون هناك اعتداء وتجاوز.

---

(1) سورة آل عمران، الآية ١٦٩-١٧١.

(2) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو أيوب: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، الكويت، ط١٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، (ج٥، ص٢٠٥).